مجموعة قصصية

زقاق وأزقة

مصطفى رحماوي

اسم الكتاب/ زُقاقْ وأرزاقْ (مجموعة قصصية)

اسم المؤلف/ مصطفى رحماوي

سنة النشر/ 25 أغسطس 2021

مصممة الغلاف/ مناصفة بين المؤلف و أميرة محمود فتحي

تنسيق/ المؤلف

الجهة الناشرة/ دار تُراث للنشر الإلكتروني

مدير عام الدار/ المهندسة أميرة محمود فتحي

رئيس مجلس إدارة الدار/ عبد الرحمن محمد

دار تُراث للنشر الإلكتروني

/Website/https://torathbookstore.blogspot.com

زُقـــاقْ وأرزاقْ

المؤلف:

مصطفى رحماوي

دار تُراث للنشر الإلكتروني

.....

.....

اهـــــداء

الثلجُ والمرجُ والكثبانُ في وطني والبحرُ والطورُ والوديانُ من عدنِ

مخطوطُها هكذا قد خُطَّ لِلْعلنِ مِن رسمِ عصرٍ، كأنَّ العصرَ لم يَكُنِ

مَن ذا يمدُّ الهوى عن حجَّةِ الزَّمنِ أمْ غرَّهُ الصُّلحُ والمعروفُ في المحنِ

يَديَّ والقلبُ والعينينِ بالأذُنِ للشعب، والظن موهومًا يُفرّقُنِي

لا في البسيطةِ من يغفو على مُدُنِي والشعبُ فيهِ اختلافُ الزيّ والأَلْسُنِ

ذا مغربُ السلْمِ والإكرامِ للمُؤمنِ بالعيشِ بين أُناسي كالمُقيمِ هَنِيّ

أرضي ومن ضرَّها مضرَّةً ضَرَّنِي ما ململَ الحالُ أقوالي وما لمَّنِي

شدَدْتُ رُشدي وردُّ الودِّ أَرْشَدَنِي لِذا يَدِي لِلذي للقدِّ قدْ دَلَّنِي

إنَّ المقامَ على أرضي يُتوّجُنِي في العصرِ سلطانَ رُشْدٍ والوفا مَدَّني

.....

.....

.....

مقدمة:

" لدي حدس أنك لا تحبذ المقدمات، ولا أنا. سأقدم لك الضوء الأخضر للقراءة كيفما شئت، لكن للأمانة علي أن أشير - لك - إلى أمرين؛ أولهما: أني قد لا أكون ملما بالدقة اللازمة للفن الذين أبدعه. وثانيهما: أن العبارة توهجت في بعض السطور أكثر من توهج القصة نفسها، بمعنى أن غايتي لم تكن السرد، إنما قصدت في أجزاء ليست بالقليلة المحاورة مع القارئ."

قراءة ممتعة...

حـــــي الأزمـــــــــة

انتقلتُ في أواخرِ سبتمبر إلى حيّ الأزمة، وهو حيٌّ بالبناء العشوائي في ضواحي المدينة الكبيرة، سُكّانه الأوائل من عُمّال شركةٍ أجنبية أعلنت إفلاسها بعد أزمة مالية، فكانت سبباً في تواجده وتسميَّته. لم يكن العيش فيه سهلاً، لكنه كان مقصدًا جيدًا للفقراء والمعوزين، وأنا لا سبيل لي في مكانٍ بين أهالي المدينة المرفّهين. فالذي يُغادر المنشأ يصير همُّه الملجأ، والليث المتباهي ببروز أسنانه إذا خرج من البساطِ الأخضر صار على الإسمنت حشرةً تُدهس من أحقر بني البشر، ولا أضمن حياةَ الحشرة فإنها إذا ارتبكت اندفعت في اتجاه الخطر وقتلت نفسها!. ما أبشع أن تتنقل كالحشرة!.

منذ أن وصلتُ لم أحدث بشراً إلا صديقي الذي أشار لي على غرفةٍ للأجرة، وأخبرني عن قصَّة الحي بعد أن استفسرت على الاسم المشؤوم. وفي اليوم الذي سأكمل يومي الثالث في الغرفة، جاء عندي صديقي وطلب مني أن نخرج للتَّعرف على المكان ومرافقه، لأنه لن يكون متفرّغاً لي في الأيام القادمة، وعليَّ أن أتدبر شؤوني الخاصة لوحدي في الحي. وحينها تعرَّفتُ على السوق الشعبي والمسجد والحمام والخلاء!، يا للفظاعة، أهذا كل شيء، ولما سألتُ عن مُتنزَّهٍ

أو مكانٍ أجلس فيه وحدي، كانت الحديقة العامة في حدود المدينة المكانَ الوحيد، وهي تبعد ساعةً من المشي من الحي. والمقاهي هنا، نفسها كانت للتدخين والقهوة والشاي، ولم تكن تزيدُ فوق هذه المنتجات ليمونة!. يا للضجر، كيف لا يُصاب الإنسان بالصَّرع في مكانٍ فيه مرافق أقلَّ من السجن!. بعد تلك الجولة عدتُ متعبًا نفسيًا، وتلبَّسني القلق عن كيفية إمضاء الأشهرِ القادمة، وكم من الوقت سأحشر هنا، يا للحظ وأنا من نويتُ الاستقرار!. لم أجد حلاً للصُّداع غير الموسيقى والاسترخاء إلى أن عُدَّتِ الساعات، ورحمني النوم من الوجود!، كم يحلو النومُ حين يضجُّ الوجود بالأصوات.

في اليوم الرابع ارتأت النفس الذائقة من الفقر المُذل، أن عليَّ إيجاد انشغال يضمن لي مدخولاً أسدُّ به حاجيات الوجود اللعين. ما كان منّي إلا أن أطلعَ من بين الجدران في بؤسٍ وحقدٍ، وأجرَّ أقدامي التي خار جُهدها. وكما هو متوقَّع فالغريب مصدرُ دهشة!، يتطلَّعُ فيَّ هذا وذاك عسى يعرفون من يسير على أرضهم الأم، أ شرطي متخفي بالثيابِ المدنيَّة يبحث عن المهمشين أو مجرمٌ هاربٌ من تطرُّف المدينة!، أو بدوي حملَ آخر جلبابٍ وباع آخر بقرةٍ للوصول إلى المنزلة الوسطى بين الحضارةَ والقدامة!. وكان من طبعي أن أسير واثقًا، رافعًا رأسي، رغم مذلة الفقراء في الوجود، إلا أنه إذلالُ قدرٍ مكروهٍ لا يصل إلى حقارة إذلال تطوعي كالفئرانِ التي تترك خياراتِ الوجود وتدسُّ نفسها في كيسِ طحين!. ولم أنتبه كثيرًا للناظرين إليَّ لكن تحديقهم يخترقُ صفاء ذهني، أكملت جولتي دون أن أجد سبيلاً للأعمال اليدويَّة المؤقتة أو ما أسميها عملُ يومٍ أو يومين، فقد كنتُ أمقت العمل لأسبوع متواصل، أما الشهر كاملاً فلن يُكتب له الوجود طول ما حييت.

جلستُ قرب سور صغير، يبعد عن الشارع خمسة أمتار. وشدَّني التفكير إلى السيناريوهات المحتملة، وحرَّضني على الالتجاء للمدينة لعلي أصادفُ شيئًا رغم أني سأتجولُ كالحشرة، غير أني لم أحظى بفرصةٍ أخرى، والمالُ الذي في حوزتي لا يكفي لأكثر من ثلاث أيامٍ قادمة. صمَّمت الذهاب، مع القيامِ بأقصى ما لي من جهدٍ وحيلة حتى لا أعود حاملاً خيبتي ومذلتي وحدهما من هناك!، قمتُ من مكاني وقصدت الشارع، رغم أني أدرك أن أكثر من ساعةٍ من المشي تنتظرني، لا أغفلُ وجود وسيلةٍ للنقل لكنها بثمن وجبة عشاء، وأنا أفضل ألا أنام جوعًا في سبيلِ الأمل!. وسرت أخطو، وكي لا أشعر بالإحباط بدأتُ أهتم بكل ما في المحيط حتى الحجر الذي يزيدُ مقاسه على عجلةِ سيارة!. إنَّ تجنُّبَ الإحباط والمرارة قد يجعلك تفكر في أقذر الأشياء على أن تشعر بخطواتك أبطأ من خطوات حيوان الكسلان، وقد يجعلك تُرافق ضفدعةً فقط لأنها تدبُّ بالحياة. كنت أخطو نصف نائمٍ من شدَّة شرودي على رصيف الطريق الخالي الذي لا يعبُر منه غيري مشياً على الأقدام، ومن حين لآخر تعبُر من جانبي سيارةٌ أو دراجة نارية أو شاحنة، لكن المشاة منعدمين. وحده حذائي تحسَّس المجد والعظمة لأنه كان يسابق العجلات!. كانت حرية مفرطة في المكان لدرجة أني تمنيتُ مضايقتي من حشرةٍ أو جرذ مجاري - وهم شائعين في الحي إلى حد أني اعتقدتُ أنهم من جنسي - لأشعر أن الحياة ما تزالُ قائمة، لأول مرة أدرك أن الحرية ركودٌ ممل، وأن مُضايقة الكائنات الأخرى يحرّكُ وجداني. وأخيرًا بعد احتباس الزمن بدا لي شارعٌ متقاطعٌ مع الشارع الذي جئتُ فيه، وخلفه منازل عالية. أبشرتُ خيرًا، يا إلهي، لم تكن تبدو لي البنايات العالية أزهى من

الجبال المغطاة بالثلج الأبيض، وأطيب للنظر من شـــجرةٍ شـــامخةٍ في الزمن والطول، كهذه اللحظة!، يا للمشـــقة. وانتهى بي المســـيرُ إلى التواجد بين الجدران وكأنَّ الخلاء تلاشـى، والحياة بعثت في البسـيطة من شـدَّة الحركة في المدينة بين الذاهبين والعائدين. تطلَّعتُ للشـوارع المرئية، وبدأتُ أقامرُ على الحظ في أحدهم. وأحلل المشـــاة عســـى أن أرى عليهم علامات العمل المتاح!. يمكن للمرء أن يصـيرً متنبئ إذا ما تغرَّبَ عن الزمكان، يجهل خطوته الآتية ويعلم الآتي كاملاً!، بل ويرَ البشـــارةَ على محيا العابرين!. لولا وهمُه المتفائل، فإنه لم يكن له أن ينتقي من الواقع إلا المأساة.

فجأةً ظهر شـــاب على غير هيئة السُّـكان، كان متَّســخ الرداء، مكفهر الوجه، كتفيه منحنيين كجناحي طائرٍ في أول رفرفةٍ له للتحليق، تعبه يثنيه عند ركبتيه. قد يسـعد الإنسـان برؤية آخر يتجرَّعُ مرارةً أكثر من مرارته، لكثرة ما يرى نفســه الوحيد الذي يرشــفها، ســعادةً تبلغُ يقينًا بفردوسِ حياته التي صُــدفةً يكتشــفها. ولم أخفي تفاؤلي عندما رأيته، وتابعتُ الســير خلفه إلى أن ابتلعه بابٌ أزرق صــغير في حاشــيةِ من بـابٍ عظيم. يظهر لي أنـه مصـــنع لكن لا أعلم مـا ينتجـه. قرَّرتُ أن أجرّبَ الطرق وعرض نفسـي للعمل فيه. طرقتُ الباب وانتظرت مُهلةً إلى أن خرج الحارس.

- الحارس: نعم أيها السيد
- أنا: أريد رؤية المشرفِ من فضلك
- الحارس: لا يوجد، لكن من أنت وما تريد منه؟
- أنا: أريد أن أسأله عن عمل

- الحارس: كنتُ أظنك شـــيئًا يا هذا! لا يوجد مكان للعمل، فتّش في مكانٍ آخر
- أنـا: كيف تعرفُ أنـه لا يوجد منصـــب، أنتَ تراقب الباب لا الملفات ورغبة الأشخاص الذين ينوونَ المغادرة
- الحارس: دعني أرى عملي، اذهب لن يغادر أحد وإن فعل، فلن تدخل أنت.

وأغلق الباب في وجهي. اللعنة، كلُّ من ينالُ منصـبًا رمزيًا بين سـورٍ كالكلب يستعبدُ الغنم الداخلة إليه!. لا عجبَ في ما رأيته من سخطٍ على ذاك الشـــاب المســكين!. أكملتُ ســيري متعكر المزاج، ومع بضـــع خطوات أجد نفســـي أمام بابٍ آخر عظيم تردَّدتُ في طرقه غير أن الحاجةَ تدهسُ العزَّةَ في ســـيرها. وثانيةً طرقتُ الباب هذه المرة لا مجيب، أظنُّ أنهم في عطلةٍ أو أن الحارس يأسَ من الطارقين!. أو أن ربَّ العمل أوصـــاهُ ألا يطلَّ على الجحيم!. غيَّرتُ الاتجاه إلى عمقِ المدينة، حانيَّ الرأس، إلى أن وجدتُ مقعداً فجلســتُ أفكرُ في خُطوتي القادمة ليسَ إفراطًا في التفكير إنما لتجنبِ إفراطٍ في المذلَّة.

وبعد شـرودٍ في الخذلانِ والذكريات البائسـة توقَّدَ في داخلي الغضـب، وقمتُ ماشيًا والعين شرارةُ لهب، والقدم سيفٌ بتَّارٌ يُقسِّمُ الشوارع على الوقتْ. ورغم أنّي لم ألتقي مُرادي إلا أني أردعُ الشـــفقة، إنَّ الشـــفقة كالإعلانِ عن موت النفس، في بعض الأحيان تُمزّقُ إحساس الشخص أشـــدَّ من الظُلم!. وبعد أن طفح الكيل وزاد الويل، بدأتُ أتجول في كل الأماكن من أسواقٍ وشوارعٍ ومرافقٍ. غير أن الجميع مشغول بأعماله ولا من أحدٍ يحتاج مساعدةً أو خادِماً!، بعضُ البخلاء يفعلون كل شيءٍ

بأنفســـهم أكثر من الفقراء المغلوبُ عن أمرهم. لم أنل إلا التعب في التواجد بين هؤلاء، يا للحضـــارة، بأيّ حجَّةٍ يدَّعون أنها الأرقى هل لأنها محت البســـيطة من مُخلَّفاتها وجفَّفت الأفواه من ريقها، تكادُ الحشرة فيها لا تجد بذرةً واحدةً تضمن لها العيش ليومٍ واحد!. يا إلهي ما هذا، الحي المهمش أبلغُ من المدينة حياةً، رغم أن كلاهما ســـافل!. وشـيئًا فشـيئًا بدأتِ الشـمس تسـحب نورها وتُنْقِصُ حرارتها، إذ قاربَ حلول المســـاء. وما كان مني إلا أن عدتُ للشـــارعِ الذي يُرجعني إلى مسقط الغرفة!.

لم أكمل تلك الطريق إلا بمشـقةٍ عظيمة، وكنت أتسـارعُ في الخطوات فما دخلتُ للغرفة إلا وأنا أتصـبَّبُ عرقاً. ولم يكن التعب يسـمحُ لي أن أُغيّر ثيابي، فارتميتُ مُسـتلقياً، وكانت السـاعة حينها الثامنة مسـاءًا. وبينما أنا في استرخاءٍ ما كادت تَمرُّ نصف ساعةٍ حتى سمعتُ صديقي يُناديني، نهضتُ مُترنّحاً كالسكران وفتحتُ الباب.

- صـــديقي: أهلاً، كيفَ تســري معك الأمورُ يا صـــاحبي؟، هل اعتدتْ التواجدَ هنا؟
- أنا: تقريبًا (قلتها وانا أضـحك)، في الحقيقة لم أسـتطع التعرف على أحدٍ، كما أني لم أجد عملاً لحد الساعة
- صـــديقي: يا للعجب، هذا هو ســببُ زيارتي لك. إنَّ زميلي في العمل أصابه مرضٌ ولن يحضر غدًا، وجئتُ عندك يا صاحبي أسألكَ إن كنتَ تريد الذهاب للعمل معي.
- أنا: أتمازحني، إن كنتُ أُريد! فقد فتشـــتُ المدينة زاويةً بعد زاوية عن أيّ عمل.

- صديقي: أفهم من كلامك أنك آتٍ
- أنا: نعم، غدا تأخذني معك. أتعلم يا صـــديقي، من الجيدِ أنَّ لي صـــديقًا مثلك، وأتحسَّـــرُ على من ليس له صـــديق يُفرحهُ ولو بكلمة، إن أغلب الأصدقاء اليوم يبتغونَ رُؤيتك أدنى منهم فذلك فخرُهم الوحيد. فكيف بصديق يُقدّم لك أُفقاً في الحياة!
- صـديقي: لا تقل هذا يا صـاحبي، نحن أخوةٌ، ولن أجد أفضـلَ منك، ولن أثق في غيرك!
- أنا: لن أُخيّبَ ظنك، وإن فعلت يوماً فاعلم أني فعلت كلَّ ما في وسعي كي لا أفعل
- صديقي: لا شكَّ في ذلك. أدعُك الآن تستريح. ولتكن جاهزاً قبل السـابعة والنصـف صـباحًا، أحضـر معك ثياباً تحتمّلُ أن تتسـخ وتُنظف من جديد. سـوف نسـتقلُّ سـيارةً للأجرة... مع الثامنة يجبُّ أن نكونَ في العمل
- أنا: أكيد ســأكونُ جاهزاً، شــكرا لك. أتمنى لك الســعادة كما أسعدتني، إلى اللقاء.

تصافحنا وغادر صديقي. وكأنَّه أتى وحملَ حجراً ثقيلاً من فوق قدميّ، أشـعرُ أني أخفُّ من ذي قبل. وارتخى وجهي باسـماً، ونسـيتُ أن هذا الخبر ليس إلا خُروجـاً من درجـة بؤسٍ إلى درجـةٍ أخرى منـه، إن البؤس يُفاجئني بالتحريض على السـعادة كما لم يفعل الفرح مهما بلغت لذته، وتحوَّلَ التعب فجأة إلى دوامةِ تفكيرٍ وتخيلٍ لأحداث الغد. وبدأت تهجرُ إليَّ الأسئلة؛ عن طبيعة العمل وإذا كنتُ قادراً عليه، لكن لم أكن مُخيراً على أية حال. ورغم أني أدرك الأمر، إلا أن الذات ميَّالةٌ للتفكير

في مُسببات الحزن ومآله، والتفكيرُ يحشرنا في استحضارِ الأمد البعيد، ولو تدبرنا فالتفكير في الحزن أطول من عمر الحزن نفسه. تقلَّبتُ مراراً، ولم يُساومني النوم على ساعاتِ الليل المتبقية، فتحتُ عيني وأشعلتُ الهاتف فإذا بالعين تستقر على الوقت الذي يشير إلى الثالثة ليلاً، وبدأتُ أقسم الساعات المتبقية، وأحسبُ لحظة نومي مع لحظة ايقاظي، وكم يلزمُني لمصالحة النوم قبل أن أفارقه!، ولم يقبل غمضة العين إلا بعد الرابعة، وبعد شروق الشمس رنَّ الهاتف مع السابعة غير أني كنت كالمخمور وأوقعته - كما يُوقِع قارورة الخمر ويسري إلى عوالم اللاوعي - إلى أن سمعت نداء صاحبي. اللعنة، صحيتُ مُهرولاً إلى ثيابي وأنا أخاطبه: "دقيقة وسأكون في جوارك". وعلى عجلةٍ ارتديت ثيابي وغسلت وجهي وتوجهت إليه، كانت في يده حقيبة كبيرة لا أعلم ما فيها. فقال لي: " تأخرتَ يا صديقي"، وأنا لم أعي بعد بأني في الزقاق وأني خرجت دون أن أتناول الإفطار.

ابتسمت وخطوت، وسرنا في وجهتِنا، كان مزاجي مُتعكراً إلى حد لا يُحتمل والعين أثقلُ من اليد في الحركة!، وبالكاد كنت عاجزاً عن النطق، إذا بادر صديقي بالحديث أجيب بالإيماء بوجهي. وما كدنا نصل نصف الطريق إلى سيارة الأجرة حتى بدأ الحديث من جديد.

- صديقي: أظنك اعتدتَ على الراحة، إني أراك على غير حالتك التي عهدتك عليها في هذا الصباح، هل أثر عليك الاستيقاظ مُبكراً إلى هذه الدرجة؟
- أنا: ليس كذلك، لكني أشعر بالتعب النفسي أكثر من التعب الجسدي. أريد أن أستقر على أي حال، الناس تفكر في تعديل

الوضـعية، وأنا لازلت أبحث عن وضـعية. أشـعر أني خارج الحياة !

- صـــديقي: لا عليك، كن متفائلاً. ســـتجد طريقك لا محالة، بالتدرُّجِ ستصل إلى سبيلِ قدرك.
- أنا: سأحاول، لكن ليتك تدعني صامتاً لعلي أستعدُّ للآتي. أحياناً أشعر بالوخزِ في دماغي من تدفق الأفكار والمعطيات، إلى حد لا أطمح في أكثر من دقائق من الصمت والاسترخاء.
- صـديقي: (ضـاحكاً) لك ما ترغب فيه. ها هي سـيارة الأجرة تلك الظاهرة هناك، كدنا نصل.

بعدما صـعدنا إلى سـيارة الأجرة صـمت كِلانا، لكن الذين كانوا برفقتنا في السيارة لم يتوقفوا عن الثرثرة. غير أني لم أهتم، لكن معرفتهم لكل شـيء كما يرونه هُمْ أمرٌ بغيض، وكفيلٌ بأن يكون تعذيباً نفسياً وعقلياً، خاصـةً في الصـباح، فلا يحظى الدماغ بفرصـة الاسـتيعاب والتقاط أنفاســه، إنهم لا يُحتملون. وبينما أنا أحاول أن أتناســى هؤلاء، أَوقف صـــديقي ســـيارة الأجرة ونزلنا. ما هذا ؟، إني لا أرى إلا منازلاً في بداية نشأتها ولم تكتمل بعد.

- صديقي: هيا بنا للعمل
- أنا: أيُّ عمل هذا !
- صديقي: ستعرف عمَّا قريب، هيا خلفي

دخلنا بين تلك المنازل وصــعدنا إلى أحد الطوابق، ووضــع محفظته، وبدأ يَســتخرج منها عدَّة أدوات. كان عمله إحداث فجوةٍ في الجدران وتثبيتُ أنابيب المياه وتغطيتها بالإسـمنت بعد ذلك، وترميم الأرضـية

كي تصير مسطحة. بدأت في مساعدته بفَكّ الانابيب، وتَحضير خَلْطةِ الإسمنت، وإحضار بعض الأشياء. كان الأمر جيداً وقضيت معه أربعة أيام في هذا العمل إلى أن عادَ زميله. الذي لم أُطقه إطلاقاً، لأنه دائم التعليق على عملي الذي لم يكن يرضيه. تحملته ليوم واحد وندمت لأني فعلت!، إنَّ تحمُّلَ الناس وهم يستميتون في إظهار رُقِيْهم أمام الآخرين أفظع من تَحمُّلِ رؤية جروٍ يتغوط على قدميك!، فماذا إذا كنتَ أنت المعني بالأمر؟. اعتقدتُ في البداية أن نيَّته أن ينصحني، لكن النصائح إن افتقرت للعطاء والتنبيه، أصبحت تَفاخُر على المنصوح. وإن رغبته تجلَّتْ في أن يُظهر فَضله في المكان على حسابي فإنه حقير، إذا كانت الفضائل تظهر على حساب الآخرين فلا أظن هناك أرذل منها. وما كان مني إلا الانتفاض، وأَعربَ هو عن عدم اهتمامه بوجودي. فإذا كان لن يتغيَّر شيءٌ في حضوري وغيابي فلما أيها السيد تهتم لما أفعله في حضوري!. وصديقي حائرُ بيننا، وكل محاولاته في الصلح بيننا انتهت بدون طائل، وأخبرني أن أكون صبوراً وجدّي وأنَّ التعلم يكون بخفض الرأس، لأن العمل سيوفر لي أشياءً أحتاجها. لكن هذا أنا، أفعل ما أحب وإن كنت على حافة التشرد، إن الجدية المفرطة هي الجنون. على أيَّةِ حال لابد من تغيير كل ما لا أجد راحتي ونشاطي فيه، وأيُّ تغييرٍ عظيمٍ يَحتاج اختلالاً أعظم. وتركت العمل وعدت إلى الحي، وعندما عاد صديقي من العمل زارني واعتذر لي عمَّا وقع. وشرحت له أنه ليس السبب وأن هذه طبيعة الأحداث، ستكتمل بغض النظر عن قيمة الأشخاص بالنسبة لنا.

لكن أَذَكَرْتُ لكم أن أغلب المصائب التي وقعتُ فيها كانت بسبب الآخرين. جلُّ المواقف المحرجة والسيئة التي تَعْلقُ في الذاكرة،

وتُؤرقني كلما تذكرتها، كانت تُوجَّهُ من الآخر، فأنا لم أكن لِأتجرأ على العديد من المحاولات قبل أن أتأكد من سيرها الجيد. لذا لم يكن عندي إلى هذه اللحظة إلا صديق واحد، وكنت أقضي الوقت وحيداً. ورغم ذلك كنت أؤمن أن الناس تتشارك مشاعر التقدير دون الحاجة إلى قرابةٍ أو جوار، وأن لا أحد يبتغي لكَ المضرة دون سبب. دفعتني أوهامي إلى أن أرغب في التحوُّلِ إلى إنسانٍ اجتماعي، وكنتُ حينها في الأسبوع الثاني في حي الأزمة. يا للسخرية، القدر نفسه لم يُمهلني كثيراً.

بعد أن تركتُ العامل البارحة، اليوم ليس هنالك ما أفعله سوى تطبيق ما يُراودني. وبدأت في إلقاء التحية على كل من يجمعني به ركن من أركان الحي. وبينما أسأل شخصان واقفان عن بعض الأشياء في الحي، جاء ثالث وألقى التحية وأخرج قطعة حشيش، لفها، أشعلها. وانضموا إليه، وأخرجوا من جيوبهم نصيبهم من الانتشاءِ المُخدّر. ومدَّ لي أحدهم وقال لي "ليس معك، خذ دخّن. كلنا نحتاج من يمد لنا إذا كنا مُفلسين". أجبته بأني لا أدخن، فضحك، وأكمل يرتشف من اللفافة التي تشبه السيجارة، كان الأمر غريباً أنه أشبه بجوٍ رُوحاني؛ الدخان، أجسادٌ متهاوية، عيونٌ حمراء ومرتخية، شفاه زرقاء تمتص السواد الملفوف بالبياض، كلامٌ غير مفهوم... وفي لحظة، مدَّ لي آخرٌ محفظةً صغيرة، وقال لي أمسك هذه بضع ثواني، بينما أُعدّل ثيابي. وانتظرتُ أن يتسلمها من عندي.

وبغثةً سمعت صوتاً غليظ النبرة "لا يحترك منكم أحد"، نعم إنَّها الشرطة، فتشونا وأخذوا المحفظة الصغيرة وكانت تحتوي على أشياءٍ

بلا فائدة وقِطعاً لا أعلم ما هي، لكن قطعة واحدة من بينهم عرفت ما هي، حشيش!. أخذونا في سيارتهم، ومنها إلى قسم الشرطة. تلقينا مجموعة من الأسئلة، نفيت فيها معرفتي بهؤلاء، أو التعامل معهم وأني لا أدخن. لكن ردهم "قد تكون لا تدخن وتبيعه، وما الذي أوقفك مع من لا تعرف، أتضحك علينا" ولم يصدقوا ما حكيت. كتبوا المحضر، وبعد ثلاث أيام تم الحكم علينا بستة أشهر. بعد أصبحت لي سوابق قضائية، والآن أنا محترف... في ماذا؟... في السرقة والنصب!، الآن يهتمون لي في كل مكان، لم أعد كالغريب أو كالحشرة!، وأصبحت اجتماعياً، تعرفني الناس والشرطة!.

كسرة خبز كسرت الحياة

"وضـــيعٌ أن تكون مَدِيناً للحياة على وجودك، أن يكون عليك الافراغ من أجل التزوُّد، أن يكون عليك أن تفني جُهدك من أجل قطعة خبزٍ تُعيده إليكَ لِتفرغهُ غداً من أجل قطعة خبزٍ أخرى ودواليك" هكذا قال عمر الأبن المتمرد حين أبصر وضع من هم حوله، وبدا يرى أنه قدَرٌ كالمدّ قريبًا ســـيجرُّه إليه. فاتَّجه إلى تحقيق آماله في البحث عن منافذٍ تفتح له رِزقاً أوفر من معيشـــةِ يوم، غير أن محاولاته آلت للفشـــل، ووجد نفسه عاطلاً. مما أوقد نار السخط في خاطره لأيام عدَّة قضاها يُصـــارع إحباطه في عزلةٍ تامةً داخل غرفته. إلى أن أدرك أن العزلة لم تكن عالماً جديداً يســـكنه، بل كانت أشـــبه بمقعدٍ داخل ملهى ليلي!، وأنه كان أشبه بالمُشاهد الذي يحمل عبءَ الراقصين والسكارى!. وما احتمل إلا أن يصير منهم وقال في نفسه "كما كان الحال فالزمن يسري علينا جميعًا، إن لم أعش تجربتي فلابد لي من تجربةٍ أعيشها، ولي في من أراهم تجاربٌ غفيرة". وقرَّر أن يكون اليوم آخر يوم يقضـــي فيه وقتاً طويلاً في المنزل، بل توعَّد ألا يعود له إلا ليلاً قصـــد النوم باستثناء إذا كان في حالةٍ سيئة.

وبعد ستةِ أشهرٍ من الجمود، وَطَأ بقدمه بعد عتبة المنزل، وسار بضع خطواتٍ وهو يسمع الغوغاء من الناس. إن هؤلاء البائسين لا يتفوهون إلا نميمةً وحسداً ممَّا امتلكه سواهم، والحق أنهم ليسوا أكثر سفالةً من المحسودين!، فإنَّ الأوضاع سافلةٌ إلى درجة أنَّ كلَّ السافلين ارتقوا فيها!. وبدا أنَّ غيابه نصف عامٍ تقريبا عن هؤلاء لم يُغيّر فيهم شيئاً، بل زادوا سوءًا، ولكن لم يهتم قط بجعلهم أفضل. فقد سبق وأوحى للكثيرين بالاحتمالات الممكنة دونما استجابة. ولو تكلَّمَ للخلاء لربما استجاب أحدهم، وإن كان آخرهم صدى المكان. وعَلِم من خلال محاولاته تلك أنه ساذج، وحدهم الساذجون ينسجون حيوات موازية ويُسْجَنون!، أو يُكَهْرَبون بالصدمات حتى يُأْخَذوا للجنون. وتخلى عن النبالة، للبحث عن كسرة خبزٍ مُحالة!، لا يُصِدق المرء أن الحصول على قطعة خبزٍ يُذلُّه للتسول!، ليس المتسولُ من يرفع يده، هناك متسولون يرفعون أجزاء أخرى. أكثرُ من ذلك تسلَّلَ التسول إلى نبرة الصوت ودرجتها. أليست حقارةً أن يغير الإنسان نفسه للأبد للحصول على وجبة تُهضم في ساعاتٍ قليلة!؟.

أكمل سيرهُ شمالاً، جنوباً، شرقاً، غرباً، وما بينهما. وعاد من بعض الطرق أكثر من مرة، ولم يُصادف في مسيره إلا الوجوه الحمالة للموت والجدران الكاتمة للصوت، لا فرص مرئية تُبصر لعينيه. ومن أقوال الغوغاء "أنَّ الفرص المُتاحة، لغير القرابة غير مُباحة". فعاد للبيت خائباً، أو أقول عاد إلى باب من أبواب الجحيم، فالخارج باب والداخل باب.

كان لدى عمر الابن المتمرد أب يُدعى هشام، وهو لا يُؤمن إلا بتجاربه وأقوال الناس وأمثالهم عن تجاربِ الآخرين، فكان الأب غير راضٍ على تَعامُلِ ابنه مع الدنيا. كما أن نتائج الابن غير المثمرة زادت من ظنون الأب، وزادت من اندفاعه بالكلامِ المُحبط والتَّهكم والتنقيص من الابن. وهذا الوضـــع جعل عمر لا يُطيق المكوث في جانب الأب في أي مكان لأكثر من دقائقٍ معدودة حتى يَفر، لأنه لم يكن يستطيع تحمُّل الملامة على وضعٍ لم يختره، ولم يكن لأن يرضى بسيره على خُطى الوالِد والموت كما عاش نكرة. غير أن عمر كان يُحس بالدَّيْنِ، لأن الأب يُوفر العيش لحدود الساعة، مما يزيد من سعير الجحيم في داخله وكل كلمة بمثابة حطبٍ مشتعلٍ يَحرقه حرقاً. وكان يأكل من خبز الأب اليابس كما يَبتلع الوحل، ويشـــرب كما يشـــرب ماءً قذراً، فما كان يمرّرهما بين حنجرته ومعدته حتى يُحس بأنهما ســـيعلقان بينهما، من شدَّةِ الضيق الذي يُرافقهما.

وللأســـف ظلَّ الأمر يتكرر، وفقد عمر طموحاته وبدأ يفكر في الكدح من أجل خبزه اليابس الخاص به، لأنه حينها ســـينعم بالهدوء الذي لم يَعُد يجده في كل مرة يسمع صوت الأب الذي لا ينطق إلا ملامة. وأيُّ صـوت يصـدر منه أصـبح يسـبب للابن توتراً ودُعراً يجعله يتنصَّـتُ على صـوت لا يُطيقه، ويُوقِف جميع انشـغالاته ويُحدق في الهواء!. إن الهدوء في بعض الأماكن أصبح دُعاءً مُلِحًّا، وأعسر من تمنّي الصُدف.

وفي يومٍ مشـؤومٍ سـيكون الأب يعمل ويَحتاج مُسـاعدةً، ولم يجد عمر مما سيثير غضبه، هكذا هم الآباء من الأجيال القديمة يعتبرون أن على الأبناء مساعدتهم للقيام بإرادتهم. والأبن لا يُدرك ما يقع!، وما إن دخل

للمنزل حتى انهالت عليه العبارات التي تُنقّصُ منه ومن جدواه، وتحكي له كم هو عبء، وعدمه أفضل من وجوده. لكن عمر تجاهل لأنه اعتاد على التشهير الذي يقوم به الأب من أجل تلك العيشة الفقيرة، ومُتفقٌ أنَّ عدم إنجابِه كان سيُقدمُ له خدمةً عظيمة. لكن الأب لم يكد يصمت لأكثر من ساعة متواصلة فانفجر عمر قائلا " أنتَ من اخترتَ ذاك الطريق وذاك العمل وهذه العيشة، أنا كنتُ مُعترضاً منذ البداية. يكفيني خبزٌ يابس وماء حتى أعيش وبقعة من الأرض لأستقرَّ... هل أَوجَدْتني ووضعتني في هذه المحنة، في هذه الدنيا المعتمة لتشفق عليَّ وتستعرض في كل مرة ـ ما أمكنك ـ نِعَمك علي!، اسمح لي أن أقول لك أنَّ وجودي بسببك أكبر نقمةٍ ولعنةٍ سأتحمَّلها لسنين. ها أنا نكرة مثلك لا شيء يستحق أن أكدح له حتى نفسي النكرة، ها أنا أمامك عليلٌ وعاجزٌ، لا أحد يسير معي في إرادتي. كان بإمكانك أن تُساعدني وذاك أسهل لك من أبسط شيءٍ تفعله ولكن تعتبر مساعدتك لي فساداً لأن المرء في نظرك عليه الاعتماد على نفسه. كم غبيةٌ هذه الفكرة ورديئة، لأنك لو ساعدتني بالفأس كنتُ حفرتُ بئراً ولو ساعدتني بمجرفة لقلَّبتُ الأرض للغرس، لكنك تُصرُّ على أن أخلقها من العدم. أحضرتني للدنيا ولم تُزودني بشيء إلا المتاعب والأمراض النفسية. فانعم بجُحرك هذا وبهذه الحياة وحدك، من الآن لن تتحمل ثمنَ قطعة الخبز اليابس الخاص بي!، وشكرًا لك على نِعمتك". وحين كان عمر يقول ذلك كان الأب يحدقُ فيه بغضب، ولم ينطق كلمة، وما إن أنهى الابن كلامه حتى خرج وأغلق الباب خلفه.

وجد عمر نفسه بين الشوارع لا لديه القدرة ليعود بعدما قاله، فالاعتراض على فكر القُدامى خطيئةٌ عُظمى، ولا له ملجأ يقصده، ولا

هو يحمل من المال قطعةً. ليس معه سوى ثيابه الرخيصة الثمن التي تُشير إلى فقره الواضح، وقدميه. يا للحيرة، إذا عاد المرءُ إلى ما لا يرضا، مضى فيه أسيراً. وإذا سار إلى ما تَمناه عاش أجيراً. هكذا وجب عليه البحث عن عمل وأن يصير مُستأجراً ليضمن استمراره ليوم آخر، وهكذا بدأ يسحبه المدُّ الذي تهرَّبَ منه في البداية. كأنَّ الدنيا تحاملتْ عليه وألقت به إلى ما لا يُطيقه، أو أن هذه الدنيا ليس فيها طريقةٌ للعيش سوى الاستعباد!.

ظلَّ النهار بطوله يجرُّ الحذاء، من الظهيرة إلى المساء. ولم يجد في النواحي والأحياء المجاورة التي يستطيع أن يترجَّلَ إليها أية فرصة، وكانت تلك الأماكن مليئة بالمتاجر والمحلات الخاصة، وانعدمت فيها الأعمال العامة والجماعية التي قد تَحتاج خدماتِه. وفي انسحاب ضوء الشمس عاد ساحباً كل ما اعتقد، وجلس في حديقةٍ عامة، وبدأ يفكر ما الذي يستحسن فِعله. وقرر أن يعود إلى المنزل وأن يخطط للغد.

عاد للمنزل مُتستراً، وهو يتحاشى رؤية أبيه، بسبب ما حدث ظهيرة اليوم. واستطاع أن يتجنب الاصطدام به ودخل غرفته، لكن كان الجوع يمتصُّ أمعاءه من شدة مَسيره. نهض وأوصى أخاه الصغير أن يُحضّر له شيئًا ولم يكن في البيت إلا هما والوالدين، فكان اللوم الأعظم عليه، لأن أخاه صغير ولا يتجاوز الثالثة عشر سنةً. لبَّى له الصغير طلبه ونزل إلى أمه التي كانت سخيَّةً وحُنوناً كعادتها وأرسلت إلى ابنها ما جاد به كفُّ الزمن، وأكل ونام يومها. علِمَ الأب أن الابن سينام في البيت لكنه لم يكترث له، وبدا أنه لا ينتظر منه جدوى ولا حتى العيش!.

في صبيحة اليوم الثاني خرج يبحث مجدداً، ومن الصدفة التقى بعض الرفاق القُدامى، ودار حديثٌ طويلٌ بينهم وكانوا في نفس الحال تقريباً. ولكن سُرعان ما استاء وأكمل طريقه وحيداً لأنهم كذلك يحتقرون ما يفعله الآخرون ويلعنون عيشتهم، هكذا نحن البشر لا نلعن إلا ما لا نملك، ونجعله بخيسَ الصفات حتى نُخفف ألم الافتقاد. ونصدق فيما بعد هذا الاعتقاد!. غير أن حظه لم يَعرف يُسراً وتكرَّر ما حدث اليوم الماضي في هذا اليوم أيضًا ولم يصادف أية ذرةٍ من الأمل.

رجع للبيت لليوم الثاني مهزوماً، وما إن فتح الباب حتى اصطدم بالأب. فقاله الأب "هل ستظلُّ تتجوَّل وتأتي تستريح عندي!، أنتَ لم تفعل شيئاً في حياتك، لا تستطيع حتى أن تكون نكرة، ماذا جنيت بأفكارك تلك لا شيء سوى المذلَّة وحديث الناس، وإلى أي حد سأصمد لوحدي، لم أعد أرغبُ في هذا سأترك كل شيء". لم يجب عمر بكلمة وانسحب إلى غرفته. واضطر إلى المكوث منتظراً إلى أن ينام الأب حتى يأكل الخبز اليابس ليعيش إلى الغد. إلا أنه بعدما نام الأب وتمكَّن من الأكل والرجوع إلى غرفته لم يأخذه النوم وظلَّ يفكر في ضيقٍ مما يحدث له، وقال "كيف لا أجد شيئا في الخارج، هل فِعلاً ما بداخلي وَهْمٌ لا يوجد في الخارج، ما الذي في داخلي يوجد في الخارج. ما الذي أملكه وأستطيع فعله؟..."، وظلَّ يطرح الكثير من الأسئلة من أجل إيجاد تبريرٍ يُعلّقُ عليه هذا العجز. لكنه حتى في داخله لم يجد شيئًا، فأحسَّ بصداع في رأسه. وأشعل الموسيقى لعلها تخفّف عليه، ومن شدَّةِ حزنه وإيقاع الأغاني استرخى، وأُغْلِقَتْ عيناه على عالم الوعي!

وسرى به الحلم إلى شارعٍ طويل، بدأ يخطو فيه إلى أن وجد نفسه أمام محطة القطار، وفكر في نفسه إنها الفرصة من أجل البحث عن قدره خارج المدينة، لكنه كان بلا أمتعةٍ وبلا مال. وقف ينظر هنا وهناك ويفتشُ عمَّن يُساعده على دفع ثمن التذكرة. وفجأة يُلاحظ أن أباه يجلس على مقاعد الانتظار، ذهب إليه وطلب منه المساعدة وأخبره أنه لن يعود بعد ذلك للمنزل وأنه سيُعولُ على ما يجنيه. ولكن الأب رفض وقال له إذا كنت تستطيع أن تجني شيئاً فبدأ من هنا. غضب الابن وذهب يبحث عن شخصٍ آخر ونسى أن يسأل الأب ماذا كان يفعل في المحطة. الكثيرين ظنوا أنه مُحتالٌ أو كاذب. وهو يتمشى يائساً وجد ورقةً نقدية ذات قيمة عالية تكفيه للذهاب، فابتهج وشعر أن القدر يَخُطُّ له مساراً جديداً، وبالفعل ركب في قطارٍ كان مُتَّجه إلى مدينة تبتعد عن مدينته ستة ساعات، إلا أنه وجد الأب يجلس في المقعد خلفه، نهض وحاول الخروج لكن القطار انطلق، ورجع إلى الأب ليسأله عن سبب تواجده في نفس القطار، ولِما يريد الذهاب إلى تلك المدينة بالضبط الذي اختارها هو، لكن اللاوعي لم يُمهله حتى استيقظ على ضجَّة الأطفال في الزقاق.

استفاق وأدرك أن ما مرَّ به لم يكن إلا حلماً، وأنه ما يزال في البيت. قام من مكانه ونظف وجهه وتناول فطوره وغير ثيابه وخرج، وهو لا يُفارق التفكير في الحلم ولِما كان الأب هناك. ذهب يسأل بعض الرفاق عن شارحٍ للأحلام، إلى أن أشاروا له إلى رجلٍ يفقه في تلك الأشياء فذهب إليه وروى له عن الحلم وعلاقته المتوترة بالأب، فقال له الرجل: "إن الحلم يقول أن أباك سيُرافقك إلى أن تصل إلى وجهتك، وأنك مهما اختلفت معه ستنتبه له وهو كذلك سينتبه لك." لم يهتم كثيراً

بما قاله لأنه كان عادياً بالنسبة له، فالتأويل الجميل للعلاقات الاجتماعية شائعٌ، ولا يفسر بل يُرضي توهُمنا. وأعاد التفكير في الحلم بطريقة أخرى وخاصة المال الذي وجده والذي فكَّ أزمته في الحصول على تذكرة الخلاص، هل يكون الأب من وضعها بعدما رأى فشل ابنه، إن غالبية الآباء لا يقدمون مساعدةً مباشرة، وإنما يضعونها خلف الظهر إلى أن تلتفت إليها، بل يكونون أسخياء إذا لم تُقَدَّمْ من يدٍ إلى يد!. أو أنها سقطت لأحدهم، فحظُّ البعض يأتي من سوء حظ البعض الآخر. وكان تفكيره في الحلم يهدف لإيجاد سبب الفرصة في اللاوعي الذي رصده بالوعي أو ربما الذاكرة!، أشك أن هناك ذاكرة غير واعية. فإن اللاوعي أكثر حرص على التقاط الإشارات لأنه الأكثر تفاني لِحاجاتنا ورغباتنا. لكن لم يكن ذلك مُجدي.

وانهزم الابن بسبب قطع الخبز اليابس الذي رفض أن يَكدح لأجله، فما كان منه إلا أنه لجأ إلى العمل في إحدى الأسواق حَمَّالاً للسلع والبضائع، لكنه كان يهلك نفسه مُقابل ثمنٍ زهيد، إنَّ لحظة الحاجة تجعل المرء كالرهينة يفدي روحه بجسده، وما أكثر من يستغلونها. وبعد يومٍ من الهلاك أقسم ألا يعود إليه.

وفي اليوم الموالي قصد أحد المعامل التي تُشغّلُ الإنسان بلا ضمانات وبثمنٍ زهيد لكنها على الأقل أقلُّ ضرر على العظام!، ولكن لا شيء يخلو من السلبيات، والضريبة أن تقضي معظم النهار بعيداً عاكفاً في المعمل بلا رؤية أشعة الشمس. وماذا يفعل من لا اختيار أمامه، سيقبل أو يموت جوعاً أو ينهار عصبياً. فضَّل أن يقبل، وظل يعمل ويأخذ دَيْناً ليأخذ الخبز اليابس إلى حين أخذ الأجرة الأسبوعية. لم يكن يتبقى

له شـيء بعد دفع الدَّيْنَ، ولم يستطع أن يُوفر أبسط الظروف الأخرى. وسـار هو الآخر في أن يَرتقي إلى مستوى النكرة!، أو المرئي!. بعمله الذي لا يوفر له عيشاً جيداً، لكنه استطاع بهِ كسب صمت الناس الذين كانوا يُحرضـون الأب عليه، وصـمت الأب الذي لم يكن يراه إلا نهاية الأسـبوع وحينها كان الأب يُلقي لومه المعتاد "ماذا جنى من هذا العمل لا شـيء، لم يفعل شـيء كأقرانه. هناك من أقلُّ منه جُهداً وأفضـل منه جوداً".

واستمر الحال أشهراً، واستطاع أن يتعلم ويرتقي من مركزٍ إلى مركز حتى تحسَّنت أُجرته لكن لم تكن تكفيه للاستقلال بل تنتهي عند شراءه قطعةً من ثيابٍ جديدةٍ وقطعة الخبز اليابس الذي يعيش به، لولا رأفة أمه عليه لما آكل اللحم لا أحمره لا أبيضه!. ولربما أصبح نباتي!، فمن غير الممكن أن تتوقع الأثر الذي تفعل الحاجة في القناعات.

وبقي على هذا الحال إلى أن اعتاد عليه، وهو الآن أكمل ثمان أشـــهر كاملة في هذه المهنة. واكتســـب خبرةً تُخوّل له الأفضـــل، لكن القدر ســـيجعله يتفاجأ بوجود وجوه جديد ضـــمن الزملاء، ليعرف بعدها أن مالك المعمل أضـــاف آلات جديدة واســـتقطب عمَّالاً جدد. لم يهتم عمر كثيراً، واتجه إلى مكانه. إذ به يجد شابة يندهش البصر من جمالها.

- عمر: لو سمحتِ هذا مقعدي، وأنا أشتغل هنا منذ مدة
- الشابة: أنا آسفة لكن المالك هو من أخبرني بأن أعمل هنا
- عمر: كيف ذلك؟ أين سأعمل أنا إذن؟

انزعج عمر وتوجَّه إلى المالك الذي كان يجلس في الطابق العلوي.

- عمر: وجدت أن مكاني محجوز، ماذا يعني هذا؟
- المالك: قررت أن أغير مكانك، ستعمل الآن كمساعد لأن الأماكن قليلة، ونحن نحتاج أصحاب الخبرة. والشابة لها خبرة، وكذلك جميلة ستجذب لنا عمَّالاً آخرين لهم خبرة أيضا، هكذا هي حياة المال والأعمال.
- عمر: ماذا؟ بعد هذا الوقت والجهد سأصبح مساعداً، وأتقاضى نصف ما كنتُ أحصل عليه!
- المالك: أصبر إلى أن تجد مكاناً، لم يكن أحد محظوظ مثلك. قد منحتك مكانة وأنت في بداياتك حان الآن أن تتركها لأصحابها، لا تعتقد أنك أصبحت أفضل.
- عمر: لم أقصد، لكن أحتاج تلك الأجرة. لا أستطيع تحمل أقل منها
- المالك: ستعتاد، لاتزال في بداية المشوار. هذا هو عملنا والآن انزل وساعد الشابة. وأنت محظوظ للمرة الثانية ستعمل مع شابة جميلة يحلم الكثير بقضاء الوقت معها
- عمر: لكن...
- المالك: هيا، لا أريد سماع أكثر من هذا وإلا غيَّرتُ رأيي.

استدار عمر ونزل والإحباط بادٍ عليه، وسار إلى قُرب الشابة يلقي عليها السلام الذي لم يلقه في البداية من دهشته. وبكبرياءٍ قال

- عمر: سأكون مساعدك هنا
- الشابة: حسناً، أنا أدعى ياسمين وأنت؟

- عمر: ناديني عمر، لكن أرجوك لا أريد الحديث كثيراً، أشـــعر اليوم بالتعب. فقط قدّمي لي العمل وأنا سأتممه
- الشابة: حسنا، أتمنى لك الشفاء.

تتابعت الأيام ولم يلفظ عمر إلا كلمات نادرة مع ياســـمين وكانت كلها تصـبُّ حول العمل، وفي اليوم الأخير من انتهاء الأسـبوع قبض راتبه الهزيل، وما إن يخطو بضع أمتار إلا ويخرج محفظته ويعُدُّ راتبه، كما بدأ في استحضار الاحتمالات الممكنة في توزيعها بسلام!.

دخل عمر للبيت مُنهاراً من التعب، وجلس كعادته يتناول وجبة الرابعة عصـــراً، والتي ليس لها اســـم، ولا يحظى بها إلا مرة في الأســـبوع، لكونه لا يغادر العمل في الأيام الأخرى إلا بعد غروب الشمس. وصعد إلى غرفته ليســـتريح ســـاعة على الأقل، وما إن انقضـــت تلمَّس جيبه ليخرج المحفظة إذ بها غير موجودة. جن جنونه حينها وســـار يركض نازلاً وصـــاعداً بين غرفته ومكان أكله لعله أوقعها هناك، لكن لم يجد لها أثر. خرج مُسرعاً ذهاباً وعودةً في الطريق التي تقود إلى عمله ولم يجد شـــيئاً يُذكر. فاتصـــل بالمالك من أجل أن يُقرضـــه بعض المال ويقتطعه له من أجرة الأسـبوع القادم، لكن هاتفه كان مُغلقاً فترجَّل إلى المقهى التي يجلس فيها - وكانت قرب المعمل - غير أن صـــدفةً لاقته بالشابة ياسمين وحاول أن يتجنبها لكنها نادته

- ياسمين: ما الذي أرجعك إلى هنا؟ هل تبحث عن أحدهم
- عمر: نعم، أريد المالك في موضـــوع مهم. سـنتحدث لاحقاً، أنا مستعجلٌ الآن

- ياسمين: لكنه رحل. لقد كان برِفقتي وصديقتي وقال أنه سيذهب لإحضـــار الســلعة. لكن إذا كان الموضــوع مُســتعجل يمكنني مساعدتك إذا استطعت
- عمر: شكرا. لا عليك، سأحدثه لاحقاً

لكن حدس ياســمين لم يســمح لها بأن تتجاوز الموقف وألحت عليه أن يُخبرها. وبعد مُكابرة منه أخبرها بما حدث معه. فأخرجت مِحفظتها وتقاسمت معه أجرتها، نظر إليها نظرة حسرة وألم وعطف، وقال بينه وبين نفسه "هاته التي كنتُ لا أطيقها، هاته التي كنتُ أعتقد أنها سلبت مني مكاني، إنها تسلم لي نصف المبلغ التي تحملت من أجله معاملتي الجافة واســتغلال المالك ونظرة كل الناظرين الذين تطوقهم الرغبات. هاته التي لم أسمح لها بأن تعرف عني شيئاً تُعرّفني بنفسي". بدأ في شكرها واعترض عن مساعدتها، وقال أنه لا يمكنه أن يقبل المال وأنه من نصيبها، ولم يترك لها اختيار إلا أن تركته يذهب في سبيله. غير أنها تَعقَّبته إلى أن دخل منزله، ووضـــعت نصـــف المبلغ في ظرف وكتبت عليه اسمه، وأرسلته مع أحد الأطفال. وعندما استلمه ودخل إلى المنزل وجد نفس المبلغ الذي قدمته له ياسمين. بدأ بسرعة يُفتش عن الطفل ولم يجده، وفتش عنها ولم يجدها، فقد أخذت سيارة الأجرة بينما كان يتلقى الظرف. وبفعلها هذا انقذته من اشتعال العلاقة الأسرية التي لا ينســـاها إلا وتقع بينه وبين الأب خلافات لا تخمد، وجنبته اللجوء إليه.

مرَّت واقعة يوم الأجرة برداً وسلامة، بفضل ياسمين، التي اشتغل بها تركيزُ عمر هذين اليومين، وشــعر هو نفســه بأنَّه صــار كثير التفكير

فيها. وكأنَّ غشـــاءَ العين الذي كبُر سُـــمكُه بالكبرياءِ يوم اللقاء، تفتت وتساقط عن بصره. وتصوَّرت له ياسمين مثل كائنٍ في بالغ اللطف، كما أن جمالها الخارجية يستحق الاهتمام. إنه لمن غرابة النساء قولهنَّ أنَّ الأولوية للروح والشخصية، وهنَّ لا يَهُزُهُنَّ إلا مديحُ تقاسيم الوجه، وملاحظةِ الناظر للجاذبية في تفاصـــيل الحضـــورِ الفاتن مقارنة بالأُخريات!. وبعد تفحُصـــه لِما خزَّنته الذاكرة عن الحســناء، عزم أن يصير أقرب إليها من ذي قبل.

أَشرقت شمس الإثنين، ورنَّ المنبه مُعلناً عن انطلاق تجديدٍ في الرؤية. وبعد أن تزود عمر بالقوت وجهَّز حاله، شـــقَّ طريقه إلى المعمل. وصـــل، اتَّجه إلى مكانه المشـــترك مع ياســـمين، غير أنه لم يجدها!. ابتســـم، وقال في داخله: "هل تكون تأخرت؟، أم لعب حظي مجدد ضـــدي؟". جلس مكانها باشـــر بالعمل، بعض نصـــف ســـاعة دخلت ياسمين. ترك لها المكان. وبغير سابقِ تنبيه حضر المالك، ونظر إلى ما يُوجد على الآلة وفي جانبها.

- المالك: هناك عمل واحُد هنا. الملابس خِيطت، لكن لم تُعاد بعد في الفحص والتتمة.
- عمر: أعتذر. تأخرتُ بسبب ظرفٍ قاهر
- المـالـك: عمر... أن كُفَّ عن التمـاطـل، ألم يعجبـك أن تكون مســـاعد، لا بأس نتفهم. لكن العمل هو العمل، ولا أريد فيه أي خلل.
- عمر: لن تتكرر. وليس الســـبب في أني مســـاعد، بدأ يعجبني دوري.

- المالك: هيا، أسرع وتدارك تأخُرك.

وصـــعد المالك كالعادة للطابق العلوي، وياســـمين تنظر إلى عمر في دهشـــة. وجلســـت في مكانها، وبدأت العمل وهو كذلك كمســـاعد. ظل عمر يتطلع لها من حين لآخر وكلما نظرت له ابتسـم، مما زاد توترها وعدم فهمها لما يجري. وفي فسحة الغداء. كسرت ياسمين الصمت.

- ياسمين: لا تستاء مني، فاليوم تبدو لي غريباً
- عمر: ما الغريب؟
- ياســـمين: تحمَّلت تأخُري وتلقيت العتاب مكاني، وأنت لم تكن تُطيق تفضـــيل المالك لي في مكانة العمل. وكلما نظرت في اتجاهك ابتسمت، وأنت الذي كنت تنظر لي نظرة حادة!
- عمر: كنا زملاء، يجمعنا العمل والمنافســـة، وأيضـــا تعزيز المكانة كي لا نفقدها. وأكيد العائد المادي. ولازال يجمعنا العمل والمنافســـة، لكن أنت جازفت من أجلي بالعائد المادي، وأنا جازفت بالمقابل بالمكانة.
- ياسمين: كما ترى!
- عمر: يا إلهي... ليس هذا قصدي، مُشكلتي مع التعبير عمَّا أريد قوله أشبه بتقديم وردة مقلوبة! وإعلاء الساق بدلا من الأوراق والزهرة.
- ياسمين(ضاحكة): ماذا تقصد!
- عمر: أقصد أننا تعاونا، وشعرت أن بإمكاننا أن نصير أكثر من زُملاء. ربما أنا في الحاجة إلى رفقة، قد مضـــيت في عزلة طويلة، وأنت المرشحة لذلك.

- ياسمين: حسنا، يمكن أن نكون أصدقاء
- عمر: من دواعي سروري صديقتي!

وفجأة دقَّ الجرس، وعادا للعمل. كان ذاك أول مُوقف اتجاه بعضهما. وتلاحقت المواقف مع توالي الأيام، وأظهر كل منها للآخر اهتمامه، ومدى استعداده للوقوف بجانبه. وأكمل عمر عامه الأول في المهنة صديقاً للياسمين، التي قضى في قربها ما قارب ثلاث أشهر. وما كان إلا أنهما اعتادا على بعض، ولم يستطع أحد منهما منع سيل المدائح للآخر. وكشفا عن إعجابهما في كده مرة، إلى أن تحوَّل إلى علاقة حب، تلك العلاقة التي لم يُصرّح بها العاشقين وجه لوجه، بل اكتفوا بتمريرها في الرسائل والمكالمات الهاتفية، غير أن النور إن كان مشرقاً في ضفةٍ فإن الضفة الأخرى مُظلمة. فكثرة حديث عمر على الهاتف مُخاطباً امرأة، كان كفيلاً لأن تُرجّح أمه التي سمعته أنه يعيش قصة حب، لأن ابنها ما كلَّم كائناً منذ مدة جد طويلة، وحده العشق يُخرجك من عُزلة المغلوب إلى عُزلة المحبوب. ما كان من الأم بدافع الخوف على ابنها العاجز عن مُجاراة الحياة، غير أن تُخبر الأب هشام، الذي ما سمع الخبر إلا ضحك وقال: "حَضَّرَ كل شيء لم يبقى له إلا وضع الخاتم... من ستنظرُ له... أنه عالةٌ على نفسه... إذا ظل في تلك الحماقة سيندم عليها". لكن هشام وجدها حجة كي يستهزئ بعمر، وكان كلما رآه قال عبارة مُستفزة. ففي مرة ناداه قائلا: "لما لا تذهب للسوق وتتكلّف بإحضار اللوازم كي تعتاد!... ولا بأس أن تحمل معك ابن الجيران الصغير لعلك تتخيلُ أيامك السعيدة!". وعمر لم يكن يُجب، لم يكن اليوم الأول الذي يسمع فيه تعليقات والده، وله اليقين أنه لن يكون الأخير. وبالمقابل ظلَّ حب عمر وياسمين مستمراً إلى حد لا

يُوصف، وأكملاَ في الحب ستة شهور، وعُرِفَت قصتهما في جوارهما. وتبادلا كل شيء من البوح والكلمات إلى تفاصيل حياتهما.

إلى أن أتى اليوم الذي ستنكسرُ فيه القلوب، ويُنَجِمُ عمر أن طريقه مسدود. ذاك اليوم الذي أتت فيه ياسمين تطلب منه خُطبتها، وإلا سترحل مع أهلها إلى مدينةٍ شمال البلاد. يا للشفقة، في لحظة التعلُّق لا يُدرك الإنسان ما يفعله، قد يُقايِد حياته من أجل الاستمرار!. المسكين على نيته، حاول إقناع ياسمين بالبحث عن حل، وأخبر والده هشام الذي ما تفاهم معه ولو مرة، وأصبح عمر خاضعاً وراضياً بكل كلمة منه!. وظل بين الأهل والعشيقة، يركض هنا وهناك، ويقنع هذا وذاك. وكل ذلك لم يُجدي، ياسمين رحلت، وهو ظل مكسوراً. عاد للعزلة، أغلق على نفسه حجرته، وهجر العمل. واستمر يعيش في ذكرياته، ومع توتراته مع الأهل، ما قارب خمس أشهر، وكان يخرج مرة كل أسبوعين، وما كان أحد يستطيع أن يقتفي أثره.

في إحدى خرجاته، أحس بالتعب، فجلس في أحد المقاعد الحجرية في ساحةٍ عامة. وبينما هو في غفوةٍ، ألقى عليه التحية وجهٌ ليس بالغريب، كان وجه رشيد، الذي كان زميلاً له في المدرس أيام الصبا.

- رشيد: عمر... ما الذي تفعله هنا
- عمر: رشيد... لم أرك منذ سنوات... لا شيء أجلس دون شيء أفعله. وأنت؟
- رشيد: يوجد في الشارع المقابل مكتب يُسجل الراغبين في العمل. سمعت أن هناك شركات جديدة ستفتتح هذا الشهر.
- عمر: آه.. جيد

- رشـــيد: ما الذي تنتظره إذا لم تكن تعمل. أحضـــر نســـخة من بطاقة الهوية وسيرة ذاتية، وجرّب حظك.
- عمر: شكرا لك. لكن لا رغبة لي
- رشـــيد: الرغبة لا تُولد في الســـكون، تحرك وســـترغب. قم بالتجربة وبعدها ستنسجِمُ رغبتك بما تفعله.
- عمر: هل ترى ذلك حقاْ
- رشيد: قم، وسترى أنت أيضاً

توادعا، وبالفعل ذهب للمنزل ودون أن يكلم أحد، حمل بطاقة الهوية، وخرج قاصـــداً محلاً فيه الحواســـيب وخدمة الإنترنت وجهز ســـيرته الذاتية، وقام بنســـخة بطاقة الهوية. وعاد إلى الشـــارع الذي أشـــار له رشيد، وبالفعل تسجل، وأكمل تجوله. وعاد في المساء، وبقي في البيت أكثر من أســـبوع مُنعزلاً مع أحزانه، وفي يوم الأربعاء تمت المناداة عليه من طرف شـــركة. كان دخلها تقريباً نفس دخل المعمل، لكن ساعات عمل أقل. فاستقر معهم من أجل كسرة الخبز وانجرَّ دون أن يدري إلى المصـــير الذي هرب منه. وهو المذنب حين راوغ وخطى أول خطوة في اتجاهه، ولولا تلك الصدفة التي جمعته بزميله السابق في المدرسة، كان ظلَّ ضالاً في المتاهات.

.....

أرجوحة القطران والملح

غائرُ الفكر سار المهدي على جنباتِ البحر - مستمعاً لصوت موجه ومُستنشقاً رائحته الفريدة - إلى أن اتخذ له من الصخر الذي نفَّسَ عنه الجزر مقعداً. وتاه يتخيَّلُ لو أنَّه من رُكاب الباخرة التي قُبالةَ ناظريه، لو أنه ذاك الطائرُ الصغير البنيّ الذي يلتقط السمك الصغير والعوالق من على سطح المياه... ومن حين لآخر يلتفتُ في نظرةٍ خاطفةٍ للمُشاة، وبينما هو هائمٌ في رُؤاه. فجأةً يحسُّ بيدٍ تحطُّ على كتفه، فيستديرُ ويتبسَّمُ إثر رؤيةِ صديقه أحمد.

- أحمد: ما بك، تجلس هنا وحيداً شريداً !؟
- المهدي: كنت أفكرُ فحسب، كيف هي أحوالك ؟
- أحمد: ما ظلت لنا أحوال يا صديقي، كما يشهد بصرك لم يعد لنا عملٌ ولا ملجأ.. صرنا عالةً وحالةً تُرثى حياتها.
- المهدي: آهٍ.. يا أحمد، أينَ الأمسُ المستنير. والرّفاقُ واللهو والمشاوير. حتى البسيطة التي وطأتها أقدامنا اهتزَّتْ تحتنا، وأعادت نحتنا.

- أحمد: كفاكَ شجناً، لابدَّ أن نحيا... ولابدَّ للحياة من مُبتغى.
- المهدي: صـدقت، قد حلَّ ما حلْ، حتى ماضـي الأرض أشـبه بحاضرٍ زُحلْ. لا زالَ الأمل ولا رحلْ.
- أحمد: ذاك القول الذي أستحبُّه يا شاعرنا.. للأسف، أنا مضطرٌ للذهاب لديَّ موعدٌ، كنتُ مارًّا من هنا فقط، ألقاكَ في مناسـبةٍ أخرى.
- المهدي: أكيد يـا أحمـد، أتمنى لـك خيراً في موعدك. رافقتكَ السلامة.

توادعا، وأكمل "أحمد" طريقه فيما تذكر "المهدي" وتمتم لنفسـه: أنا أيضاً لديَّ موعدٌ الليلة، موعدٌ مع الأقدار.

وبعد مرور بضـع دقائق نهض "المهدي" وسـار بضـع أقدام، والتفت للمرة الأخيرة للأفُقِ الأزرقِ الشـاحب والرِّهان المالح، وكأنَّه يُخاطبُ البحر بسـرٍّ ما، أو لـه رجاءٌ منـه. وأكمل شـريد النظرات، مُختلَّ الخطوات... قاصـداً منزل أهلهِ الذي أنهك الزَّمن جُدرانه، ويُحكى أنهم سـكنوه قُبيل أشـهرٍ من ولادة المهدي الذي بلغ الثامن والعشـرين من العمر. وعند وصـوله يفتح الباب ويصـعد إلى بيته كأنما الدار خالية! إذ ليس في وسـعه النظر إلى وجه أهله الذين اعتادوا - في نظره - رؤيته بـدون جدوى، وهم الآخرين لليوم مـازالوا يحملون عِبـأ الدنيـا عليـه. حيث أنَّ أيَّ كلمةٍ تصـدرُ منهم في حقّهِ تمزّقُ فؤادهُ تمزيقاً، وتجرُّهُ إلى قافلةِ المُحبطين. فكان يتحاشـى أن يسمع أو يشهد شيئاً يَعْلَقُ في ذاكرته ويفتكُ بهشـاشـةِ نفسـيته وبشـاشـةِ روحهِ. فما السـبيلُ ليلقي ببوحهِ؟

ويخبرهم عن موعده الذي قد لا يرجعُ منه!. وكيف يخطُّ بالسكينِ على كبدٍ اقتاتَ منها إلى رُشده!؟.

بعد دخوله غرفته أغلق الباب واستلقى مُنهزماً للحيرة التي تسكنهُ، وللتفكيرِ في الموعد الذي لم يأخذ فيه الشورى قبل عَقْدِه. إلا أن الوقت لم يترك له مجالاً للتراجع ولا للتطويلِ في الشرح لأهله. فما وجد حلاً سوى أن يجعل من اليوم تكراراً للأيام السابقة، وألا يُغيّر شيئاً، وأن يُكمل كأنَّ لا شيءَ سيحدث. فقام واقفاً واتّجه إلى أمه أمينة التي كانت تَشغلُ نفسها منذ أن فتحَ عيناه بأشغالِ البيت، وبعد تردُّدٍ قال:

- المهدي: أمي، أعلمُ أني كثير الفوضى وأن بيتي غارقٌ فيها، إذا رتبته هذه المرة أعدك ألا أبعثره مُجدداً.

اعتقدت الأم أنه يلتمسُ تنظيف بيته لربما ينوي أن يزوره أحد، ولم تعلم أن كبدها ينزلقُ منها ويترك خلفه النزيف.

- الأم: لا عليك يا بني، سأنظفه حينما انتهي ممَّا في يدي. فإذا كانت لديك ملابسٌ تريد تنظيفها ضعها وسأنظفها وإذا احتجت شيئاً آخر أخبرني.
- المهدي: لا يا أمي، كلُّ شيءٍ تمام.

شكرها بينه وبين نفسه، لأنه لم يسبق أن شكرها! وحتى لا يثير الشكوك، ودعا الله أن يحفظها ويطيل صحتها وعمرها. ورجع إلى بيته، مسك حقيبته في عجلةٍ ودسَّها ببعض الملابس والأغراض وخرج مُختبئاً كي لا تراه، أما أبوه فكان في عمله كما عهده منذ طفولته. والأخوة، كان له أخٌ واحد كان في المدرسة حينها.

عند مغادرته المنزل مشـى والدمع يُوخِزُ عيناه إلى أن وصـل إلى بيتٍ معزولٍ في نواحي الشـاطئ عند حسـام صـاحبُ رحلةِ الأمل! في حدود الرابعة عصراً.

يتطلعُ حســـام فيلمحُ المهدي ويحييه من بعيد، وإثر وصـــوله يبادرهُ للحديث.

- حسام: ها قد جئت، هكذا الرجال تفي بالوعد وتواجه قدرها.

يجيبُ المهدي وهو مُنهكٌ ومستاء

- المهدي: أهلاً يا رجل، أريدُ أن أرتاح، أرشدني لمكانِ الانتظار

يقهقهُ حسام بضحكةٍ ماكرةٍ ويسأله

- حسام: أين المال، ونتحدث عن البقية.

يمدُّ المهدي حزمةً صــغيرة من الأوراق النقدية - التي أخذها دُيوناً من عشراتِ الأشخاص - إلى حسام، ويجيبه الأخير.

- حسام: هذا خيرٌ مِنَّا، نحنُ لا نفعلُ إلا الخير.

وأشـارَ للمهدي للدخولِ وأرشـده إلى غرفة عديمةِ الأنوار، جُدرانها من طوبٍ وشـقوق، فِراشـها الأرض وبضـعُ أغطيةٍ رقيقةُ السُّـمْكِ، واحدةٌ لكل شخص. يُمسك المهدي بواحدةٍ ويغفو قليلاً إلى حين وصول موعدِ المغادرة.

استيقظُ المهدي مع التاسعة ليلاً، ويُبصر قُرْبه حوالي عشرينَ شخصاً، لهم نفس المسعى وهو عبور البحر في ظِلّ الليل!

استمر الصمت مع وجود بعض الثنائيات من المتكلمين إلى أن انتصف الليل، وانتصف الاحتمال بين الحظ المرغوب والقلب المرعوب. والجميع يوجه بصره وسمعه - قَدْر ما أمكنه في العتمة - إلى أيّ شيءٍ يتحرَّك في الماء، وبعد ساعةٍ يظهر قاربٌ من العدم، لا يوجد فيه إنارةٌ ولا يُصدر صوتاً، وكأنَّه قاربٌ شبح. وعند اقترابه للشاطئ يصرخ حسام.

- حسام: هيّا.. هيّا أسرعوا بالركوب.. أسرعوا

ويبدأ كل منهم ينتشلُ أغراضه بسرعةٍ ويهرولُ في الرملِ والموج متراميا للقارب، ليجد له مكاناً في رحلة الأمل.. يركبونَ جميعاً مزدحمين في ضيقٍ وصبرٍ لكن عندهم أخفُّ من ضيقٍ وصبرٍ عاشوه!

يندفعُ القاربُ شاقاً طريقه والبرد يزداد حدّة، والرُّكابُ لا تَرْمشُ أعينهم بالخوف ولا تهدأُ دقاتُ القلوب من الدعاء. وفي لحظاتٍ صارت اليابسة بعيدة، وما عاد يُبْصَرُ إلا الماءُ المُسْوَدُ كالقطران، والذي ظَلَّ يضرب في جنباتِ القارب. وهم يتأرجحونَ بميلٍ بسيطٍ من اليمين إلى الشمال، لكن شاءت الأقدار ألا تكون هذه الأرجوحة كأرجوحة المهدِ الحنونة، ولا كأرجوحة الشجرة التي كان يلهو بها المهدي في طفولته، فكانت أرجوحة القطران والملح تزدادُ عُنفاً. وتهتزُّ بهم في اتجاهاتٍ تكاد تكون حادةً، وعلى وشك أن تقذفهم جُملةً في القطران المالح، ومن سوءِ حظ المهدي أنه لا يجيدُ السباحة، وفي وسط الصرخاتِ والأيادي المُترامية والأجسادِ المُتكئة.. أخذته ذاكرته للحياة التي كانت هادئةً جداً، لا شيء يصرخ فيه إلا الضمير.. ولا شيء يترامى فيها إلا اللوم.. ولا شيء يتكأُ فيها إلا جسده، وصورةُ أمه بين عينيه وصوتها

يدندنُ في أذُنه "تعالَ يا بُني قد جهزَ الغذاء.. ما بكَ يا بُني.. هل تحتاجُ شيء.. ارتحْ، تبدو مُتعباً..." ويستعيدُ وعيه في وسطِ الضوضاء وهو مدهوشٌ مستغربٌ. وقدماهُ تتجمَّدُ من الخوف ولكنه عاجزٌ عن فعل أيّ شيء. والارجوحةُ مازالت تلعبُ بهم والظلامُ يعمي أبصارهم والنُّواحُ يتصاعدُ والشهاداتُ بدأت تُنطق. أمَّا المهدي لا يصدقُ أنَّه ركب الموج الذي خافهُ في صِغره، لا يصدقُ أنه على وشك الموت وهو لم يُغامر حتى بيومٍ من حياته، وكأنَّه جُنَّ.. يُحملق في الراكبين ويحاولُ أن يستوعب أنَّ هذا واقعه.

في لحظتهم العصيبة كُشف أمرهم من الشُّرطة البحرية الذين سمعوا ما كانوا يصدرونه من أصواتٍ.. أحاط بالقاربِ الصغير اثنان أكبر منه تابعين للشرطة، استطاعت الشرطة إنزالَ الرُّكاب إلى قواربهم وجُرَّ القارب الصغير إلى الشاطئ، وبعد التحقيق.. قُبضَ على رُبَّان المركب وكذا حُسام وأُفرجَ بعد يومين على الرُّكاب.

سار المهدي للمنزل، وهو لم يستفق من الصدمة، وعندما فتح الباب لم يجد إلا أمه التي روَّعها غيابه، تارةً تسأله عن غيبته وتارة تسأله عن جوعه وتعبه. يُهدأ المهدي من روعها بحجَّةِ أنه كان عندَ صديقٍ له، وأنَّه بخير. إلا أنَّ أمه لم تقتنع، وظلت تنظرُ إليه وفي عينيها شفقةٌ عميقةٌ عليه. ولكن كبدها جعلها تُجهز له الأكل والمشرب، قبل أن تروي ظمأ السؤال والخوف الذي سكنها. لكن المهدي ينسلُّ بحجَّةِ أنَّه مشغولٌ بشيءٍ عليه القيام به، ويدخل إلى بيته كالميتِ الذي قُدّمَت له حياة أخرى! ويسقط كمن ضربته رصاصةٌ إلى أن بزغَ الصَّباح.

استيقظ المهدي باكراً على غير عادته، شاكراً أمه -مما استغرَبَت له-، وتركَ الأب نائماً والأخ كذلك. واتجه للخارج يحمدُ الله على هذا اليوم الذي عاد فيه الدفءُ لقدميه، مُتجهاً إلى أيّ فرصـــةٍ باحثاً عن عمل، ويُذكّرُ نفسه أنه كان سيخسرُ حياته مُقابلَ أمل، فلما لا يُضحي بالقليلِ منها في ســـبيل العمل.. بعد مرور شـــهرين من البحث وجد مســـعاه واستطاع العمل في محل لتصليح السيارات، وتغيَّرت حياة المهدي من الذي يتأرجح في أرجوحةِ القطرانِ والملحِ، للمهدي الذي أصـــبح لهُ شأنٌ في صنعِ الفرحِ والصُّلحِ. بما يُقدمه من عونٍ للأهل والآخرين.

.....

اشتبـــــاك العوالـــم

نزلَ يوســـف من الحافلة عائداً من عمله الذي أمضـــاه اليوم في نكدٍ وانزعاج، وكأنَّ النحس تشـرنق من حوله. ارتجل بضـع امتارٍ للمنزل الذي يُقيمُ فيه، وكان المسـاء قد حل والزُّقاقُ هناك قليل الإضـاءة، فتح الباب الخارجي وأقبل أمام الدَّرج لأنه كان يســكن في شـــقَّةٍ تقعُ في الطابقِ الرابع والتي عاش فيها مع وبعد والديه اللذان تُوفيا. رفع عيناه للدَّرج وتراءى له ظلُّ قامةٍ، سـرعان ما اختفى في طرفةِ عين، حسِـب أنه تخيَّله من فرط تعبه. وبدأ صعود الدَّرج بحذرٍ دون إغفالِ ما تخيله، إلا أنه وصل لطابقه بشكلٍ عادي، لكنه ما استدارَ لفتح باب شقته حتى سمعِ شيئًا أشبه بطقطقة الأصـابع، عاود الاستدارة فلم يرى شيئاً!. قال في نفســـه أنه صـــوتٌ من عندِ الجيران، دفعَ بالباب ودخل وأغلقهُ. ووضـع محفظته، وعلَّقَ معطفه، واتجه للمطبخ ليحضّـرَ عشـاءه. إذا بالغرفة المجاورة للمطبخ يصـدرُ منه صـوتُ ارتطام! توجَّه مُسـرعًا وأشعل النور ظنًّا منه سارقًا اقتحمَ المنزل. إذ بالغرفة فارغة وبدا كأن المعطف يتمايل، رغم أن النافذة مغلقة ولا ريح تتجوَّل!. جحدتْ عيناهُ واختلجهُ الشكُّ في ما يحدث غير أنه أرجعَ ذلك لظنَّه أنه متعبٌ نفسيًا!،

وبعد فترةٍ من التخمين كان الهدوء ســـادَ وانتُزع منه شـــكَّه، فرجع للمطبخ ليكمل تحضـير أكله. ومن شـدة تشـتت تفكيره قد أشـعل الفُرنَ وهو حتى لم يحضَّـرَ ما سـيطهوه!. سـيطرت عليه الدهشـة لحظة، وبعدها أطفأ الفرن وخرج من المطبخ فاقداً للشهية. وعاد للغرفة وأطفأ النور وأغلقها، وارتمى طـامعـاً في غفوةٍ تعيـدُ لـه تركيزه ومنطقيـة الأشـياء. وأطلقَ بعض الموسـيقى للاسـترخاء، غير أنها لم تكن كفيلةٍ بإعادة الارتياح إلى اهتزاز مشـــاعره وأفكاره. وفي تلك اللحظة أبى ذهنه ألا يســترجع إلا مجموعة من المشـــاهد المحبطة والمربكة، كأن الذهن تحالف مع الذاكرة لشَنّ قصفٍ عليه. ولم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك حتى وجد نفسه يجثو على ركبتيه مُنهارًا، محاولاً استيعاب ما يحدث.

شعر حينها بشعور يشبه الذي انتابه يوم أمس عندما جثا في المستشفى العمومي، إثر سـماعه وفاة والدته التي كانت تُعاني من مرضٍ مزمن. ولم يكن قادراً بوظيفته العامة أن يوفر لها أكثر من أدوية أولية تُخدّر الإحســـاس بأعراض المرض، وكانت دائماً تُصـــبره وتبرر له حالتها بـالقدرية، وبســـنة الحياة التي تقتضـــي العطاء والأخذ وكذا الحياة والموت. تلك الضـائقة نفسـها سـكنته، غير أنه يومها ما كاد يقف حتى ارتطم على الأرض مغمياً عليه. واســتيقظ على مشـــهدِ الطبيب يُعلق معطفه المتمايل، وممرضـــة تقوم بطقطقة أصـــابعها منتظرة إياه أن يستيقظ!. التفتت الممرضة إلى الطبيب

- الممرضة: أيها الطبيب لقد استيقظ

يتوجه الطبيب إلى يوسف

- الطبيب: هل تشعر بتحسن
- يوســـف: أنـا بخير، أخبرني أن أمي في الغرفـة المجـاورة، أخبرني أنها بخير.
- الطبيب: أعلم أن ما وقع لم يكن ســـهلاً عليك. لكن أدعوك إلى الصـبر، وأن تكمل حياتك التي كانت أمك حريصـةً عليها. ولا تنســـى الأدوية التي كتبتها لك، وحاول أن تخرج من الأجواء التي تُعكر مزاجك وتجعلك كئيباً.

واتجه الطبيب محني الرأس إلى الباب، وقبل أن يخرج أوصـــى الممرضـة أن تتركه يرتاح وتقدم له المساعدة، لكن يوسف رفض، وأصـــرَّ على الخروج في نفس اليوم. ورغم أن الطبيب حاول أن يشرح له أثر ذلك على صحته الجسدية والنفسية، إلا أنه سمح له في الأخير، بعد أن أكد له يوســـف أنه بخير ولا يرغب في البقاء هنا. أمر الطبيب الممرضة أن تُحَضّرَ له الإجراءات وبعدها ترافقه إلى جثة أمه التي لم يرها بعد، وخرج. وطمأنت الممرضـة يوسف وطلبت منه الاسترخاء إلى أن تعود إليه، من أجل تنفيذ ما أوصـى به الطبيب، وخرجت هي الأخرى.

وبعد سـاعتين سـمع صـوت طرق الباب، انتبه فجأةً بعد شـروده ـ في حركـةٍ طبيعيـة ـ نقلتـه عبر الزمكـان إلى زاويـة الغرفـة. نهض وفتح الباب، إذ ببعض الأشخاص من الأقارب الجغرافيين حضـروا من أجل تعزيته. فلم تكن الغرفة الصـغيرة تستطيع أن تحتوي الكثير من الناس، فمنهم من حضر يوم الوفاة ومنهم من تخلف إلى هذا اليوم. رحب بهم، لكن كلما جاء أحدهم سـرعان ما يتدرَّع للرحيل لأنهم يعرفون أنه غير

اجتماعي، وأنه وحيد وليس هناك من يتكلف باستقبالهم، وسيكونون بذلك عبء عليه. وما كاد يُودعهم حتى مالت عينه إلى موضعٍ في الدرج، حيث كانت تنتظره أمه في أيامها الأخيرة، كأنها تنبأت بدنو أجلها، واعتاد على رُؤيتها وهو صاعد. بحزن أغلق الباب وعاد إلى مكانه في الغرفة، لكنه من حين لآخر كان يَتهيَّأ صوَّراً وأصواتاً، حاول أن يتجاهل الأمر. وكان يحاول جاهِداً أن يضع للأحدث منطقاً. لكن تمنى لو أنَّهُ قضى بعض الأيام خارج المنزل، أو كان له أحد يُؤنسه. وبعد الهيام في التمني والتخيل ارتختْ عيناه حتى شُلَّتْ حركته، إذ بعينه تفتحُ وحدها ويرى الظلَّ ثانيةً بوضوحٍ أقل ويحاول الحراك، ولكنه دون جدوى يَكاد يحرّكُ رأس أصابعه، ويصيبه اعوجاجٌ على إثرِ محاولته التحرُّك، ويحاول النُّطق وطلب الاستغاثة ولا يصدر منه غير أنينٍ لا يسمعه إلا هو وبصعوبة!. ويقترب الظلُّ حتى صار مرئيًا له، ولم يكن ذاك الظلُّ إلا أمه. حينها ابتهج واستمرَّ في المحاولة إلى أن اختلطت ملامح وجهه!، فصارت شفته تتداخلُ في أسنانه، وعيناه واحدة مفتوحةً والأخرى مغلقة، وأجفانهُ كحلزونةٍ تسيرُ على عيناه، وأدنه انزلقت إلى تحت!. وفجأةً اختفى صورة أمه التي كان وجهها أبيضًا أكثر من ما عهده وعيناها مركزةً عليه لكنها كانت تمشي في سلاسةٍ كأن قدماها تتزحلق أو تطفو، فلا خطوةً تقوم بها ولا انثناءُ مفاصلٍ يظهر عليها!، واختفى انحناء ظهرها الذي تركه عليها الزمن في دنياها.

استطاع يوسف أن يقومَ مُندهشا ولكنه ما إن يكاد يقف حتى يسقط وكأنه مُخدَّر، وتُغلقُ عيناه ويشعر بشيءٍ يقترب، وهو يُكافح ألا يسقط نائماً مرة أخرى حتى لا يعود إلى ذلك الحلم الواقعي!، وعكس رغبته

ترفضُ يداه وقدماه الاستجابة وعيناه لا تقدر على الصبر. يغفو ثانيةً ويلمح ظلاً آخر وهو ينظر إليه مباشرةً ويخطو اتجاهه إلى أن يقف على قدميه، ويشعر يوسف حينها كأنَّ عظامه تُطحنْ وهو عاجزٌ عن الحراك ويتألم ألمًا عجيباً مثل ذبيبِ النمل!، فاستجمع يقظته قدْرَ الإمكان ونهض بجزئه العلوي. وجاهلاً إذا كانت تلك الحالةُ الكابوس نومًا أو يقظةً أو بينهما!، ولحدودِ اللحظة ما يزالُ عسيراً عليه تحريك جزئه السفلي والقيام!، نظر إلى الساعة المعلَّقة ووجد أنها الرابعة ليلاً. وبقي على تلك الحال نصف صاحي، لساعةٍ كاملةٍ وهزمهُ النوم مرة أخرى، الظلُّ لم ينجلي، عاود الظهور. لكنه عكس صورة أمه لم يستطع أن يتعرف عليه، ضاقت أنفاسُ يوسف عند رؤيته. وسار الظلُّ يتجوَّلُ في الغرفة من رأس يوسف إلى قدمه. وفي كل مسيرٍ ومجيءٍ يقترب، إلى أن أكمل ثمانِ دورات وكشف عن يديّه التي كانت تشابه وجهه بيضاءٌ كغبارِ القمر وعيناه مسودتين كحفرة معتمة، وكان يرتدي الأبيض الطويل. وتذكر أنه شخصية كان يراها في طفولته، أياماً كانت حالكةً بالتعذيب، حيث كان يخنقه حدَّ الموت أو يرفعهُ عالياً أو يسحبه من قدمه. فلم يرغب في إعادة ما مضى فارتفع الجزء العلوي ليوسف حتى اقترب للظل، ومسكه الظل من كتفيه حتى خنقه ووخزهُ بشيء، وأصبحت أنفاسه جد ثقيلة ولُعابه يسيل!، وحينها كأنَّ يوسف استسلم وانتظر في يأس!. فجأةً يلقي به ويمضي، ويستيقظ يوسف. وهذه المرة كاملاً ومُروَّعاً، وزادَ رهبة حين رأى لُعابه على الوسادة، وانتابهُ شعورٌ أن ما عاشه لا يشبه الكابوس والتخيلات. نظر للساعة وجد أنها تُشيرُ للثامنة، قام وغسل وجهه وجلس، وأقسم ألا ينام يومها أو يتكِئَ ولو دقيقةً. وظل جامداً شارداً إلى أن مرت ساعتين خرج وتناول

إفطاره خارجاً، وذهب ليستقل حافلة للذهاب مجدداً للعمل، وكانت الأمور تسير بشكلها العادية ككل يوم. غير أنه لم يستطع نسيانَ أحداث البارحة، وقبل أن يُغادر مقرَّ العمل توجَّه لأحد زملائه والأقربَ له بينهم وهو عماد، وكان عماد يُجيد تحليل الظواهر وتقديم أجوبةٍ مقبولة لأعجب الأشياء. فطلب منه أن يتخذا مكاناً تحت ذريعة أن هناك أمراً شخصياً وطارئاً يحتاجه فيه. وعندما جلسا، حكى له يوسف ما حدث البارحة معه، وهو متوترٌ ومُرتعب، ومن قلَّةِ نومه ليلاً وتعبه في العمل كان مُحمرَّ العينين، ومُصفرَّ الوجه، وكان كلمه مُتسارعاً. مما مالَ بعماد إلى تحليل وضعه أكثر من قصَّته واعتبر الأخيرة تخيُّلاتٍ أو أعراضَ جاثوم النوم وهو أمر شائع. حاول أن يُهدأ يوسف وبدأ يفسرُ له كِلا الظاهرتين اللتان افترض أنهما سبب حالته، ولأنه يثق في زميله ومعارفه قال ربما ذاك ما وقع وأنا كبَّرتُ الموضوع. بعد حوارهما أحسَّ يوسف بالانشراحِ في صدره وزالَ عنه ضيقه، ومشى إلى الحافلة قصد العودة للمنزل، وذاك ما كان، استقلها وأوصلته للزقاق، سار إلى المنزل وأوَّلُ ما فعل تطلَّعَ للدَّرج لكنه لم يتراءى له شيء. وبدأ فِعلاً يُصدق ما حثه عليه صديقه، وبينما هو صاعد في الدرج إذ بأحدٍ يُنادي عليه فاستدار ووجد جارهُ في الطابق العلوي وهو قادمُ نحوه وقال له.

- الجار: لماذا تتحدثُ وحدك، هل لازلت تفكر في موت أمك أم لديك مشاكلٌ في العمل جعلتك تفكرُ فيها بصوتٍ مسموع!
- يوسف: لا ليس هناك شيء، شردت قليلا. ألم تشعر بشيء غريب يحدث في الدرج
- الجار: الدرج !؟ لا لم ألاحظ شيئا. هل لاحظت شيء!

- يوسف: البارحة شعرت كأني سمعت صوتاً ورأيت ظلاً
- الجار: أظنك مُتعباً، اليوم الثالث بعد موت والدتك. أعتقد أنك تحنُّ إليها وتشعر بأنها موجودة إلى اليوم
- يوسف: لا أعرف، أظنني في الحاجة إلى الراحة
- الجار: نعم، أذهب وارتح كل شيء سيزول. لك الصبر يا بني.

وعندما استدار يوسف صعد بضع درجاتٍ بسرعة مُعتقداً أنه سيجد شيئا لكن لا شيء يُرى، وأكمل الصعود للشقة، ونظر إليه جاره بغرابة. وعندما وصل للشقة وهو يحاول فتح الباب سمع طقطقة الأصابع، وقال في نفسه: اللعنة مرة أخرى! ما يكون هذا!. ودخل إلى الشقة ووضع أغراضه كعادته، وتوجَّه للمطبخ من شدةِ جوعه. وبينما هو يفتح أكياس الخضر، من توثره أسقط بعض الأواني على جانبه. ويلتفتُ إثر إحساسه بنظرات أحدهم ولكنه لم يجد أحداً. ثار غضبه وأقسم أن يخرج ثانية ويعرف ماذا يحدث، وظل صوت الطقطقة وتتبعه إلى إحدى الغرف المجاورة طرق الباب، تخرج امرأة

- المرأة: هل تسأل عن أحدهم أو يمكنني مساعدتك؟
- يوسف: هل تسمعين صوت طقطقة
- المرأة (ضاحكة): آه ... آسفة إن ازعجتك، فأنا أقوم بتغليف بعض السلع وتجميلها. وبعض الإكسسوار والتشكيلات تصدر هذا الصوت.
- يوسف: لا عليك، ليس هناك أي ازعاج. أردت فقط أن أعرف إن كان صوتاً حقيقياً أو تهيأ لي، طاب مساءك

- المرأة (ضاحكة): طاب مساءك.

وعندما سارَ نحو شقته رأى ظلاً، تتبعه ولكن لم يلحق به، فاتجه يوسف مُسرعاً يحكي للحارس ما يراه، إذ بالحارس يتوتر ويتلعثم ويطلب المسامحة، أستغرب وسأله.

- يوسف: لماذا أُسامحك؟
- الحارس: قبل ثلاث أيام، في اليوم الذي كنت في المستشفى علِمتُ أنك لن تجيء للبيت، وكنتُ في الحاجة للمال، واستأجرته لأحد الرجال وكان يبدو مُحترماً، لكنه أبى الخروج، وكان طبيباً وقال لي أن أسمع كلامه أو يَفضحني، لأني أستأجر بيوتَ الناس للغرباء. لأن لدي ديون ستؤدي بي للسجن إذا لم أُسددها. وقال أنه سيخدّرك ولن تشعر بشيء.
- يوسف: الآن بدأت أفهم ما جرى البارحة وتعرضي للأحداث غريبة.

تاه يوسف بعد سماع هذا، وغضب غضباً شديداً. خرج يوسف واستأجرَ فندقاً للنوم فيه وبعدها فتش عن قفل جديد للمنزل. ولم يكن له المال الذي سيبدره في شراء كاميرات، لكنه لم يعد له خوفٌ على حياته من الخوارق، ولم يعد قلقاً من سلامته النفسية. لكن البيت يومها ظلَّ مهجوراً تلكَ الليلة، لا يقتربُ منه أحد. لأن الحارس أخبر ذاك الطبيب - المستأجر للبيت - عن معرفة يوسف للحقيقة، وبسبب ما حدث ظلَّ الحارس يُؤنبه ضميره على ما فعل. خاصةً أن يوسف كان إنساناً طيباً ومتسامحاً حتى أنه لم يتخذ في حقه شيئًا بعدما فعله.

عاد يوسف إلى البيت، ومعه عاملٌ يُركب له القفل الجديد. بعد ساعة خرج يوسف وسأل الحارس كم تقاضى عن تأجير البيت، فأخبره واعتذر له نادماً. بعدها طمأن الحارس، وأنه لن يحدث شيء وقال أن الأمور ستعود عادية، لكن عليه ألا يفعل ما فعله لأنه سيكون خطرا على سُكان المبنى وعليه.

لكن يوسف لم يكن يرغب في البقاء لأن البيت يذكره بأمه وعزلته، وظلت الكوابيس تراوده. فاضطر لأن يجد شقةً جديدة ويستأجرها ويستقرَّ فيها، ورغم ذلك ظلَّ يُعاني من الكوابيس، وباشر علاجه النفسي، لكنه على الأقل يَعرف أنها كوابيس ولا تتداخل مع عالمه الواقعي. وبعد شهرٍ من الحادثة رجع إلى شُقةِ والديه. وكان قد تعالج بنسبة كبيرة، وعادة حياته لطبيعتها خاصة أنه أحضر خادمةً تهتم بالبيت وتُجهز له الأكل والملابس وغيرها من أعمال البيت التي يعجز عن تأديتها، وكسرت وحدته وعزلته. كما أنه من حين لآخر كان يمدُّ العون للحارس ببعض الورقات النقدية البسيطة حتى لا يضطر لفعل أشياء مروّعة كالسابق.

.....

انخـــراط في الاختـــلاط

لَما بلغتُ العشـــرين من عمري، بدأتْ تتســـاقط مني الصُّـــور المثالية للحياة. بدت لي الأوصـــاف التجميلية والتشـــجيعية للفرح بالحياة أشـــبهَ بالغمامات التي تقلل الرؤية، ولا تســـمحُ لنا برؤية الجلاَّد. وتجعلُ من المصـــائب بُشـــرى للمحافل!. أن تُضـــرب فمعناه أنك في الطريق الصحيح، بل مُؤشر على أنك لا بدَّ أن تصل. هي الأحداث نفسها لكن مُشكلة الناس ليست مع الأحداث، إنما مع الأوصـاف، إن أغلب الناس تَصِـفُ الأوصـــاف الواقعية بالســـوداوية!. كنتُ أيامها كثير الانفعال، معتقداً أن من الوقاحة أن يُطلب منا ألا نُعبر عن غضـــبنا، ولو بعبارة مهذبة!. إنه ليس في وسْـــعنا أن نكبح توهج النفس في جميع انفعالاتها. إن الغضـــب الذي يُعدُّ ســـيئاً ومنبوذاً، يصـــير أكثر جماليةً من عبارات الأمل، التي لا تكاد تنفكُّ عن الملل والرجاء. وعلى نحوٍ غريب كان ينبعـث فيَّ الأمـل من اللاشـــيء، ومن أحلام يقظتي، لكن دون أن تُحركني عبارةُ استواءِ الطريق إلى نعيمٍ مُخلد، لأني كنتُ أشدّدُ أن لكل طريقٍ طبيعيّ وكونيّ تضـــاريســـه. واكتســـبت في واقعيتي - عكس

المتوقع - رغباتٍ جامحة ومسـاعٍ كثيرة، وتعلَّقت آمالي بالآخرين بحثاً عنهم، وبحثا عمّا نالوا من الجمال البرَّاق ومكارمِ الأخلاق.

تلك هلوستي التي لم أستطع التخلُّصَ منها. ستظل الهلوسة بإيجاد نمطِ فكرٍ يُخفّف ضـغوط انبثاق الظواهر الراهنة، هلوسـةً ملازمةً لنا مهما عمَّرنا في الوجود. إن طبعنا يسير على نحوٍ غريب، فالتصور المأخوذ عن الحياة مبني على إمكانية التوازن بتجميع انطباعات ذاتية معينة!. وسـتجد أن كُلاًّ منا يدعو إلى تزويد شـيءٍ وتقليل شـيءٍ، لبلوغ أعلى درجات المثالية في الحياة الإنسـانية. وأذكر كيف كنتُ مُندفعاً إلى الأفكار الحقوقية والشعارات التي تمجّدُ الإنسان، وتُخرجه من الوصاية السلطوية بغض النظر عن الجهة المسؤولة عنها. وكانت تلك النزعة جليَّةً في اختياراتي للمفضـلين والرفاق، سـواء الواقعيين، أو الذين عرفتهم من عباراتهم المكتوبة.

وبعد يأسٍ، صادفتُ مظاهرةً. ومن فُضولي سِرتُ أستفسر عن سبب قيامها، قيل لي أنها من أجل إرجاع حقوق مُسـتلبة. ومن دافع الواجب الإنسـاني وقفتُ بين الحشـد. وكانوا يصـطفون أقداماً ويرددون بعض العبارات، وبالطبع أنا لم أكن أحفظ أية عبارة. غير أني لامسـت فيها المطالبة بالحقوق الاجتماعية، وكانت تدقُ الطبول في صدر المحروم. وتَناسَيْنا الشمس التي تَتموَّجُ بالحر فوقنا. وعلمت من خلال الأصواتِ المُلقية للتحية مع بعضـها البعض، أن هناك شُـخوصـاً من النخبة. وباعتقادك أنك من النخبة ومن المختارين للصـلاح سـتنتابك العظمة حينها، تلك العظمة الهشـة التي تنكسـر مع أول خطوة خارج الحشـد. وتعرفتُ على بعض الأقران الذين كانوا متشـبعين بالفنون والجنون،

ويحفظون على ظهر قلب أقوال الفلاســـفة والمفكرين والمناضـــلين. شــعرتُ حينها أني في حربٍ بالريش!، كنت أشــعرُ بوخزةِ الحماســة المُبهجة. لم أستطع الاستمرار معهم لوقت طويل، لأني كنت شارداً في يأســـي إلى أن ابتعدتُ كيلومتراتٍ عن المنزل، فارتجلتُ إلى طريقي عائداً.

وصـــلتُ للديار، كان عليَّ انقاذ الجســـد الجائع الذي يحمل الروح المُتخمة، وبعدها فتحت حساباتي على مواقع التواصل، وبدأت أكتب ما جَمَّعَهُ ذِهني من أفكارٍ واستخلاصٍ. وبعد دقائقٍ راسلني أحدهم.

- هو: قرأتُ منشــورك الأخير، لم أكن أعتقد أنك ســاذجٌ إلى هذا الحد.
- أنا: على مرّ التاريخ تواجد الســـاذجون، بل جلُّ التحولات من أثرها وامتدادها كانت لتبدوا ســـاذجةً للذين يدعونَ الرزانة. يا صديقي، الساذجُ يصبحُ عبقرياً، إذا وجد مُناصرين!
- هو: لا تهتم بهذه الأمور، لو أبصـــرت لوجدت أنك تُعاني من أشــياءٍ أخرى. ورغم ذلك، صــدِّقْ أن مُعاناتنا لا تُقارن ببعض ممَّن على هذه الأرض. أو دعني أنصحك أن تعيش كما الناس.
- أنا: من اتبع الناس لن يتبعوه، لأن الذي في الخلف لا يُرى!
- هو: لا يمكنك فعلُ شـــيء في هذا المكان، ونحن كِلانا نســـكنه ونعلم تفاصيله.
- أنا: ربما نتقاسمُ المكان، لكن لا نتقاسم المكانة.

ولم يُجب بعدها، وكان في ودي أن أستفزه، بكثرةِ ما كان مُستفزاً. إن الإنســان يكاد يصــرخ على هذه الأرض قائلاً بشــاعريَّةٍ: "أيها العظماء

الذين قدَّموا لنا العدمْ، لا تحرمونا التشرُّد وثرثرةَ الفمْ!، ولا تستعمروا ما لنا من موطِئِ قدمْ!، دعونا نستريحُ إلى أن يجفَّ الدم!، وبعدها لكم الدنيا كلها وكونوا فيها ما تشاؤونَ سلاطيناً أو خدَمْ."

وبقيت على نفس النهج، ما قارب شهرين ونصف. إلى أن دخل الأسبوع الثالث من الشهرِ الثالث، وقد حلَّ في يوم الخميس. ورغبت في التفسح قليلاً. وبينما أنا أتمشى، إذ في هنيهة ارتأيت أن هذه الأفكار قد أخرجتني عن واقعيتي المشؤومة كما يصفونها. وذلك بعد سماعي بناءً يُخاطب رفيقه - الذي حثه عن تغيير إحدى الرسومات المُقترحة - قائلاً: "لم نجدها إلا بصعوبة. كُفَّ عن التمني، ما هناك وقت للزخرفة، إنه وقتُ وضعِ الطوب والإسمنت". كانت كلمة "الزخرفة" تلك رنانةً بما يكفي لترتد على مسمعي أكثر من مرة، وارتمت تساؤلاتي على شفتي "أولم تكن العبارات في الفترة الماضية زخرفة للمتمنيات؟"، "هل كانت تلك العبارات ضرورية؟"... أعتقد أن أولئك المتجمهرين كان عليهم أن يجتمعوا خارج حدود العبارة، أن يتحدوا في أشياءٍ كثيرةٍ غير تلك الأناشيد، كانت لهم القدرة على التفاني في البناء لكنهم فضلوا الزخرفة. حقا، ليس من الضرورة أن نعرف الأشياء التي نجهلها، أو أن ندقق في المواضيع التي ترسم الحياة الأمثل. لكن من الأمثل أن نعرف الأشياء الضرورية.

عدت للبيت دارياً سبب اختفاء الحقيقة، "اختفت الحقيقة عندما لم تعد واقعة". بالفعل كما قالوا الحقيقة صارت لغويَّة، إننا لغويون أكثر من صُنَّاع. عندما انفصلنا عن الخارج دخلنا في أنفسنا كالحلزون، إن تحرر الذات ليس إلا دخولها في نفسها. أظن ذلك ليس كافياً للإنسان

ليعرف إنسانيته. لكني أقول أن الأُنس ليس هيّنْ، فالإنسُ مهما تصلَّبَ بالعلمية والعملية ليَنْ. غير أن العبارات التي تكون مجازية التكوين، عليها أن تكون واضحة أنها كذلك، وتصيرَ فنيَّةً وجماليةً وليست مُشَوَّهَةً بأوجهِ الوقائع.

إثر وصولي كان من واجبي الإنساني الآخر أن أتمرَّد، إن الواجب قد يضاد نفسه في عمره الزمني. وحذفت كل ما سبق من أراء أدليت بها، وصرت أكثر لُيونة. إن الانخراط في الإنسانية والمثالية الأمثل يكمن في أن تستمتع بهذا الاختلاط.

.....

في الحيلـــــة فضيلـــــة

كنتُ برفقةِ صـديقٍ نتمشـى، إذ به مرَّ على جماعةٍ يعرفهم، فدعاني أن نسير إليهم، وذاك ما كان. تبادلنا التَّحية والأسئلة الودية عن الأحوال، وسرعان ما انكتمتُ - كما سرت عادتي مع من لا أعرفهم - غير أنّي اندهشـتُ من صـديقي الذي عرفتُ عنه الواقعيةَ والاسـتدلال المنطقي حين رأيتهُ يؤيّدُ ما يقولنه من أشياءٍ في مُنتهى السذاجة! ودون أن يُبدي اعتراضاً، ولو قلتُ له أنا تلك الأشياء سأكون على يقينٍ من انتقادهِ لي!

ولما افترقنا عن الجماعة خاطبتهُ

- أنا: لما كنتَ توافقُ على أغلب ما قالوه وأنت أدرى أنه ســـاذجٌ وموهومٌ !؟
- صديقي: أجيبكَ لكن لا تسأل سؤالاً بعده، ولا حتى عن الجواب الذي سأعطيك
- أنا: حسنا، لك ما اقترحتْ
- صديقي: في الحيلة فضيلة
- أنا: لكن لم أفهم، ما قصدك؟
- صديقي: على ماذا اتفقنا !؟

وحينها كان عليَّ ألا أسأل، وتناسيتُ الأمر. وبعد مرور ثلاثِ أيام كنَّا معاً وبالصدفةِ التقينا مع بعض أفرادِ تلك الجماعة. وأنا هذه المرَّة من طلبت التوجُّهَ إليهم، مُصمماً على أن انتقدهم لو قالوا كلاماً كالذي كان في اللقاء السابق. وافق وسِرنا إليهم وكالعادة التَّحية والأسئلة الودية عن الأحوال. وبعدها طرحوا مجموعةً من المواضيع في عشوائيةٍ وأنا كنتُ لا انفكُّ عن الرد والانتقاد ومحاولة التنسيق للحوار، فيما ظلَّ صديقي صامتاً.

بعدها رأيتُ انزعاجاً لا يتوارى من الجماعة، وسرعان ما بدأوا بخلق الاعذار للانسحاب. وفجأة أخبرني صديقي أن علينا الذهاب لأنه نسى أمر ما!

ولما افترقنا عن الجماعة خاطبني.

- صديقي: ما الذي تفعله؟
- أنا: ما لم تفعله، أتحدَّثُ بالذي أعرفه.
- صديقي: ألم أقل لك أنَّ الحيلة فضيلة !
- أنا: قلتها ولم أفهم معناها.
- صديقي: ستعرفُ عمَّا قريب، الآن تعال سأشرح لك فيما بعد. إننا في الحاجة لهؤلاء رغم اختلافنا، بفضلهم نقضي الكثير من الأشياء بل حتى الرزق نفسه يأتي منهم. إن بينهم عمَّالا وحِرفيين يُسدون لي خدمةّ أو يعرضون علي أن أخدمهم بالمقابل بعيداً عن عوالم الفكر.

في الغد وأنا آتٍ عند صديقي كعادتي، الذي كان بيتهم على آخرِ الزُّقاق في الزاوية. عند اســـتدارتي مع الزُّقاق شـــاهدت أثنين من أفرادِ تلك الجماعة وكنتُ على وشـــك إلقاء التحية. إذ بي أســـمعه حوارهم عني! فتراجعت مستنداً للحائط.

- الاول: صديقك ذاك لا تحضرهُ معكَ مجدداً.
- الثاني: نعم إنه مزعجٌ، وكثير الكلام، ويقول أشياء غريبة.
- الأول: تلك الأشياء لا يجبُ أن تُقال، من يظنُّ نفسه؟
- الثاني: إن عقله مُخرَّبْ، أنه من أرذل ما رأيت!
- الأول: نعم أنَّه أرذل من عرفت، أجهلُ كيف لفاضـــلٍ مثلك أن يُرافقَ مثله!
- صـــديقي: لا عليكم يا رِفاق، كان يمزحُ معكم فقط. لقد أخبرني أنه لم يقصد إزعاجكم.
- الأول: لا مزاحَ في مواضيعنا، لا يُناقشنا إلا ذو علم!
- الثاني: نعم. هل نحن صبيانٌ ليمازحنا !؟

وانصرفتُ قبل أن أسمعَ أكثر من ذلك. وفي اليوم التالي زرتُ صديقي وقلتُ له:

" قال لك الأرذلُ أيها الفاضلُ أنه فهمَ ما تقصده بالحيلةِ فضيلة "

ومن يومها وأنا أعمل بنصـــيحته وأنا محبوب على الدوام، لكن دعني أنصحك بالمقابل: " لا تثق في من يكرّرُ كلامك، إنه مُحتال. وإن كنت شَريفاً، قل له ما مُختصرك، وتقبَّل ما يلفظه، ولا تجعل منه حديثاً عند النـاس". إنَّ تَعـامُلي هذا ليس من دافعٍ داخلي إنما كنتُ مُجبراً كي لا

أفقد مكاني، وأقطع جميع علاقاتي الضـــرورية في المجتمع. وليســت حيلتي مصلحةً بالدرجة الأولى لأنها محكومة بالحاجة وتلبيتها. لذا ففي هذه الحالات القســـوة لا تعطل مبادئك بل تجنَّب العمل بها لأنك في مكان لا يتوافق معها، وليس من المحتوم عليك أن تُشـــاركها أو تدخل الآخر معك فيها. لكن ســـتردُّها له في مكانٍ آخر، وبطريقةٍ يكون هو الآخر مُجبراً لتجنُّبِ مبادئه التي لن تصـــلح حينها. إذا أتاك كن عاقلاً وإذا ذهبتَ إليه كن أبْلهاً. أن تعيش أبله، تلك أعقل حيلةٍ ونعمة النعم، فإذا كنت أبديت للناس أنك عاقلٌ دفعوا بك لخدمتهم بعقلك ذاك. وإن لم تفعل كرهوك.

عـــــودة وجـــوديـــــة

بعد حادثةٍ ســـيرٍ مُميتة، اســـتفاق حميد من غيبوبةٍ دامت قُرابة ثلاث أســـابيع، فقد فيها جزءاً من ذاكرته، لدرجة ما عاد يتذكر فيها الحادثة التي حصـد منها انكسـاراتٍ عدة في جسـده. وظلَّ شـهرين محمولاً في الفراش، ومُرافقاً للأدوية، حسب توصيات الطبيب المُشرف. لكنه رغم الحمولة الزائدة عليه، ما عاد يُطيق أن يمكث بين الجدران. وما كان منه إلا أن جرَّ قدمه المسـيَّجة بالحديد، بمســاعدة عُكَّازين، إلى ما بعد الباب. وواصـل السـير بضـع أمتار إلى نهاية الزقاق، الذي يتقاطع مع زقاقٍ آخر أعرض منه، إذ يصـل لمترين!. تلك الأزقة كالمتاهة، أشـبه بالممرات التي تتواجد في مسـتعمرات النمل، ضـيّقةً وطويلة، والبيوت المشكلة لها لا تكاد تتجاوز أربعة أمتار على ثلاث أمتار.

نظر إلى الأفق الذي ما كان إلا طريقاً سيَّاراً يَحدُّ الحي، وعينيه تسطع مِنهما نشــوةُ النجاة. في جوٍ صـــوفي، ارتقى بروحه الباقية وتَناســـى الجســـد المعيوب. واســـتمر مُتطلّعاً، والريح الخفيفة تتموَّج على وجهه الذي لم يكن يســتجيبُ للَمســاتِ الأيادي. ومن حين لآخر يسـمع الناس تهنئه على نجـاته، - ومن ميزةِ الحي الشـــعبي أنَّ كلَّ ما يقع يعلمه الجميع! - وتتمنى له عُقوداً إضـــافية في حياته. وهو تمنى أن يســـير

أمتاراً أخرى مع اعتراض عِظامه المكســوَّةِ بالقطع المعدنية، وتَنمُرِ مفاصـله من العمل الزائد. ما كان منه إلا أن عاد إلى فراشـه مُستلقياً، وعبثاً يُريد ترويض قدميه، بعد أن اســتعصـــى عليه دفع تكاليف الترويض الطبي. وترك لقدميه الإرادة لتعود للحركة تلقائياً، كي يُعيدا معهما مآل مصـيره. وبعد بضـع حركات دبَّ فيهما ذبيب، أجبره على التوقف وتمديدهما. والحق يُقال، لم يحظى بلحظةٍ تأمليةٍ كالتي يحظى بها الآن. ربما كلما ثقل الجسد، خفَّة الروح والملكات الذهنية. والمهينُ للبعض أن الوظائف البيولوجية تدفع الفكر إن شاءتْ بحكم الضرورة، وتُوقفه إن شاءتْ إذا وقفَ مُعَوّقاً مُعترضاً عن قيمة المتعة التي تُهديه بعد التلبية. ولحظات حميد تلك بدأت منذ أن وقع طريحاً، ما عاد يُفارق الأفكار الوجودية، والتفكير في فرضيات الوجود والإمكانيات. هذه هي الحياة لا تمنحك التفكير فيها إلا في هوامِشــها، ولو كنتَ فاعلاً داخلها تصـير محكوماً بدورك فيها. توالت سـاعات الليل، وسلَّمهُ النوم للحلم، الذي منح الكلمة للاوعي، وبدوره ألقى عليه ما حفظه من صــورِ أول خروج لـه بعد الحادثة، وأدمجها بالتمني والمخاوف. وكان حميد في الحلم سليم القدمين، يركض أينما شاء، وفي لحظة يشعُ ضوء، ويُصدم به. يســتيقظ مفزوعاً، وهو يرى أمه تفتح نافذة الغرفة التي تصــدر صـوتاً، وكانت أشـعة شـمسٍ متوهِجةً أشـبه بالضـوء الذي كان آخر ما أبصره في حلمه. ورغم معرفته بأنه لم يكن إلا كابوس، فإن وَقْعَ الأثر من هرعه مدَّ جسورِ ذهنه بذاكرته المخدَّرة.

وأثناء جلوسه عند المائدة قَصْدَ تناوله لإفطاره، كان تائه الذهن، مشتت الأنظار. وما إن أمســك الكأس كأنه أمســك مقودَ دراجةٍ نارية، وبغير إرادة أدار مِفْصـــلَ يده كالحركة التي يقوم بها في الدراجة. وبدأت

تتسلسل أصواتٌ وصورٌ مشوشة؛ شارعٌ، بعض الناس، صراخ، الليل، أضواءٌ خافتة. وفجأة تُخاطبه أمه

- أمه: الشاي سيبرد، تناول الفطور، أين أنتَ شارد

ودون أن يُجيب حميد، عاد إلى حالته الواعية وبدأ تناول فطوره وعند الانتهاء، سأل أمه من زاره يوم الحادث. ورغم استغربها من سؤاله بعد هذه المدة الطويلة عن الحادث، أجابته "عمران، لكني سألْتُه قال أنه فارقك قبل ساعات من الحادثة، وقال - كما أخبرتُك سابقاً - أن الناس اتصلت بسيارة الإسعاف بعدما وجدوك مرميًّا في جانب الرصيف، في ساعة متأخرة من الليل، وعلى بُعد أمتار منك كانت هناك دراجة نارية محطمة وجثةُ أحد الشباب، الحمد الله أنك نجوت. تم عاد حميد للصمت. وما إن استجمع قدرته حتى جرَّ قدمه نحو بيت عمران، ألقى عليه الأخير التحية واطمأن على حاله.

- حميد: جئت عندك بعد أن تشوشت ذاكرتي، ولديَّ أسئلة تكاد لا تدعني اليوم
- عمران: خير، اسأل ما شئت. سأخبرك كل ما أعرفه
- حميد: قبل أن أُفارِقك، هل أخبرتك أني سأتوجَّه إلى مكان معين.
- عمران: نعم، أخبرتني أنك ستلتقي رفيقكَ خالد الذي لديه الدراجة النارية.
- حميد: هل هو الذي وجدوا جثته قرب الدراجة
- عمران: نعم، رحمه الله.

- حميد: ســـأعودُ إليك لاحقاً، عليَّ العودة لأن موعد الأدوية قد حان، ولديَّ بعض الأغراض المهمة التي عليَّ أن أقوم بها
- عمران: أتمنى لك الشفاء... أراك. لا تغبْ علينا

ولم يكن عند حميد أية أغراض لكنه أراد الانســـحاب بلطف، كي لا يُعاتَبَ عن مجيئه من أجل الحاجة!. فالناس عادة لا تهتم بحالتك ولو كنت تحتضر، ولديهم خلط رهيب بين الحاجة والمصلحة. بعد سماعه خبر وفاة رفيقه، سيطر عليه صُداع الرأس، ما كان منه إلا أن استلقى ثانيةً. أخذ بعض المُسـكنات، وسُـحِبَ إلى الغياب المؤقت في دواخله، وغمضت عيناه.

وفي اليوم الموالي عاد إلى عمران وطلب أن يُنعش ذاكرته. أن يُذَكِرَهُ بمن هو، وكيف كان، وما طبعه. إنها لمن أعســـرِ اللحظات الوجودية أن تَحتـاج للآخر ليخبرك من تكون، أن تتلاشـــى هويتك في هـاوية الماضـــي الغابر الذي لا تصـــله أيَّة حاســـةٍ منك. وعلِم حميد من خلال سـرد عمران لبعض الوقائع، أنه كان مُتهورا، عاشـقاً للمغامرات. وأنَّ رغبته في امتلاك دراجة نارية كانت جامحة، لكنه لم يكن يجيد قيادتها، وكان كُلما أتى رفيق لديه دراجة مســـك مِقْوَدها وأداره. وكان يذهب كثيراً راكباً خلف خالد الذي توفى في الحادث، وغيرها من الذكريات اليومية. وهو يسمع فجأة أصابه صُداع شديد، وجلس جلسة القرفصاء، مرعوباً. وقال باستعجال وهو يرتعد كأنه يُحاوِر الموت!

- حميد: تذكرت، تذكرت... كنت خلفه... كانت شاحنة مُسرعة... حاول تجنبها... أدركت أنها ستصـطدم بنا... قفزت، نعم قفزت

رغم سـرعت الدراجة... صـدمني شـيء ما من الخلف قذفني للرصيف..

- عمران: أتعتقد، بعد قفزك، أن خالد اصطدم بالشاحنة؟
- حميد: على الأرجح. هذه هي اللحظات التي أذكر...

تذرَّع حميد مُجدداً لصديقه. واتجه إلى البيت. ورغم جسده الذي صار مُثقلاً، إلا أنه صـار أسـرع من البارحة، كأنه عاود الاندماج بنفسه السليمة روحياً وجسدياً. وبدأ يُحمّل النفس ما اقترفته من تتبعِ الأهواءِ المميتة، وقرَّرَ أن يحدد رغباته بمدى سلميَّتِها، ولم تعد تقوده الدهشة إلى سطوع الموت بين السرعة والتسرع، وبين الاثارة والإنارة في الطريق والطريقة. ولكن لسوء حظه، لن يستقيمَ مُجدداً إلا بالمعادن التي أصبحت جُزءاً من ذاته. وبرغم حرمانه من الكثير من الأنشطة، إلا أنه صار نشيطاً، وسديد الخطوات في الحياة.

مُتشــرِّد... وله موعِـــد

كان "سعيد" تعيساً، ولسوءِ حظ اسمه أنَّه اسمٌ على غير مُسمى!. كان يعيشُ ضـائقةً جعلت من حذائه يفتحُ فمه ويشـي بعسـرِ حاله للناظرين، وهو الذي كان في أسـفلِ السـافلين. حتى ثيابهُ التي سـترته، من حينٍ لآخر تشـنُّ غارةً وتُخلّفُ الفجوات بينما هو يكون مشـغولاً بالسـير أو التعلُّقِ بحثاً عن حاجياته. مما يجعله يخرج مُفتّشـاً في دواليبه الأربعة الخضراء النَّتنة في الشارع!، غير أنَّ لا شيءَ فيها إلا بعض الأغراض التي لا حاجَة له بها الآن. أغلقها وابتعد عن مِكبّ النفايات، لكن ما إن التفت حتى أبصـر حسـناءً تمرُّ من الرصـيف المقابل للرَّصـيف الذي يقف عليه، سـلبت عيناه بقوامها الرقيقِ، ووجهها الأبيضِ، وشـعرها العسليّ، ومشيتها الموزونة كرقصةٍ مع الوقت. سارَ "سعيد" من دهشةِ المنظر مُسـرعاً عند أقرب عابرٍ للسـبيلِ يسـأله عن السـاعة فقيل له الواحدة والنصـف، وتذكر أنَّ اليوم هو الأربعاء. فقرَّر أن يلتقيها الأربعاء المقبل إذا مرَّت في موعدها، وابتعد هو الآخر كما ابتعدت هي. وأكمل بحثه، ناظرا في أيّ كيسٍ أو مكبّ يحملُ له من مخلفاتِ القومِ مكاسبَ اليومِ. وهكذا استمرَّ منذ سنواتٍ خلت، وهكذا اكمل دورة الأسبوع.

وكان قبل اليوم الموعود وجد كيساً فيه ثياب في حالة جيدة، وكان قبلها بيوم اغتسل. لكن حال المتشرد لا تتغير كثيراً، إذ أنَّ ثيابه ليست بالجديدة ولا بالمتناسقة. بالإضافة إلى أنَّ وجهه كان معروفاً. لكنه لم ييأس من المحاولة رغم بُئسِ حاله، وجلس مُنتظراً مع اقتراب الواحدة والنصف. وفي الوقت عينه وعلى غير المتوقَّع سيأتي رجلٌ يبدو عليه حال ميسور بثيابٍ سوداءٍ متناسقةٍ، وبتسريحة شعره الأسود الملفتة، وبنظرته الواثقة. جلس على بُعد أمتارٍ من سعيد.

ويبدو أن الرجل يعرفه حيث ناداه مُتهكماً.

- الرجل: أيها المتشرد.. ما الذي تفعله هنا؟
- سعيد: لا دخل لك، ومن أنتَ لتسألني؟
- الرجل: أغرب عن هنا قد تفسدُ موعدي
- سعيد: لستَ وحدك، أنا أيضاً لديَّ موعد.
- الرجل: (ساخراً) مُتشرّدْ.. وله مَوعِدْ!

صمت سعيد، وأدارَ وجهه في غيظٍ، ينتظرُ فاتنته ذات الشعر العسليّ. وبعد لحظاتٍ ظهرت الفاتنة ماشيةٍ.

وقف سعيد والرجل وكِلاهما اتجه نحو الجميلة! وصل سعيد أولاً وناطقاً.

- سعيد: أسبوع وأنا على أملِ اللقاءْ، وما إن رأيتكِ صرخ قلبي صرخةً طلقاءْ.
- الجميلة: أُعذرني، لا أريدُ رجلاً في حياتي.

- الرجل: دعيكِ منه أنه متشـــردٌ بائِسْ، ما رأيك أن أكون لقلبك الحارِسْ؟
- الجميلة: دعوني كلاكُما. لديَّ عملٌ ولا أريدُ رجلاً فأنا أحبُّ شخصاً آخرْ.
- ســـعيد: حتى أهواءُ القلب متبوعة، ومن قلبنا منزوعة، ماذا لو ظلت كالشوكةِ مزروعة!.
- الرجل: أسكت أنتَ أيها المتشرد، وأذهب حيثُ تكون.

تصـمت الجميلة، وتكمل طريقها دون التفات رغم تمتمت الرجل قصـد مناداتها، لكنها لم تأبه وكأنها أرادت التخلُّص منهما مخافةَ أن يتســـببا لها في مشكل.

بقي الرجلُ كئيبَ الوجه، جامدَ الجسد. فواساه سعيد مخاطباً إياه.

- ســـعيد: مُتشـــرّدْ... وله مَوعِدْ، لكَ ولهُ نفس المورِدْ، وغيركما جعلَ قلباكما مَوقِدْ!

بِـــــــلا وجـــــــهـــــــة

العيشُ في زحمة البشـر صـعبُ التكهن. ها أنذا مجبرٌ على التَّرحلِ من المدينة التي تعرف جميعِ جراحي وندوبي، بعدما عصفت بي المصائبُ من شـــــتى الجهات حتى اقتلعت كل روابطي بهذا المكان. اليوم عكفتُ في بيت الإيجار - الذي أدفع فيهِ نصـــــف الأجرة الزهيدة - ولم أذهب إلى عملِ الكدح وبذلك أعرف أني مطرود، فعدم حضـــــورك في مثل هذه الأعمال اسـتقالةٌ مباشـرة!. لكن الوقت راوغني عند شـرودي في التفكير في ما مضـــى وفي الخطوة القادمة، نهضـــت في تعبٍ أقلّبُ في دولابي الخشـــبي الصـــغير، أحتار في ما أختار من ملابســـي التي لا تتعدى خمس هيئات منذ سنتين!. أخذت الأربعة، والخامسة فأنا أرتديها نوماً وصـــحوة. وبعدها تناولت إفطاري من بقايا عشـاءِ البارحة، الذي كان كافياً، فقد كان من النـادر أن أتنـاول الافطـار في أيام العمل الذي أتجه له قبل بزوغ الشـــمس. وها أنذا أفتحُ الباب وألتقي الشـــمس لأول مرة بعد تلك السـنتين، كانت أشـدَّ وهجاً على عيني التي والفت الضـوء الخافت. إذ بي مشــيتُ فيها فترةً كالأعمى! وعيني منحنيَّة إلى الأسـفل قبل أن أستقلَّ حـافلةً حضـاريةً إلى محطةٍ للحـافلات المتجهة إلى مختلف مناطق البلاد. لم تكن لديَّ أية فكرة إلى أين سأذهب، رفعتُ نظري إلى

الحافلات فوجدت واحدةً تشـــبه في لونها لون رداء حبيبتي ذاك اللون الأبيض المخطط بالأحمر، ذكرني بحبيبتي التي هجرتني وســـافرة من المدينة قبلي، حوالي بضـع أشـهرٍ، وتركتني وحيداً إلى اليوم. أخرجت من جيبي ورقتين تُعادلُ أكثر من يومينِ من الكدح، واتجهتُ إلى بائعِ التذاكر؛

- أنا: هل لديكَ تذكرةٌ لهذه الحافلة
- بائع التذاكر: نعم، إلى أينَ تريدُ الذهابْ.
- أنا: هذه الحافلة تســـيرُ إلى وجهتي، هل هاته الورقاتُ المالية تكفي؟
- بائع التذاكر: دعني أرى، نعم تكفي وأكثر
- أنا: إذن، يمكنك أن تأخذ ثمنَ تذكرةٍ واحدة
- بائع التذاكر: تفضَّلْ سيدي تذكرتك

وبعدها صـعدتُ إليها دونما أن أعرف أينَ سـتتجه، جلسـت في مقعدي ولم يكن في جانبي أحد. كنت ما أزالُ مُتعباً فقررتُ أن آخذ غفوةً، وفي حين غفوتي تلك امتلأت الحافلة، وســارتْ في طريقها. نصـفُ سـاعة تقريبًا وسـأصـحى، لأجدَ في جانبي حسـناءً عشـرينية بالغةَ الجمال. لم أتمالك رغبتي في التعرُّفِ عليها، وحين كنت سأنطقُ، إذ بصوتٍ عالي ينطقُ "أين تذكرتك". لم تكنْ تلك الحســـناء إلا حُلماً وصـــوتُ مفتشِ التذاكرْ هو الذي أيقظني. قدَّمتُ له التذكرة، وأعاد تَسْـــلِمي إياها بعد تحققهُ منها. نظرت إلى جانبي كانت امرأة أربعينية، كأني رأيتُ نديرَ شؤمٍ يُلاحقني. أدرت وجهي إلى النافذة إذ بمناظرٍ بدويّةٍ تستلبُ نظري، وتزيلُ ما تلبَّسني من توترٍ، وعلى فجأةٍ تنطقُ المرأة،

- المرأة: يا ولدي تبدو متعباً ومنذُ أن صعدتُ وجدتك نائماً
- أنا: لا، ليس هناكَ شيء، فقط غفوتْ

تمدُّ المرأةُ يدها إلى حقيبتها وتخرجُ شيئاً

- المرأة: خُذ يا ولدي شاركني هذه الوجبة المُتواضعة

نظرتُ إليها باستغراب وأنا من عددتها نديرَ شؤمٍ، وأنا بطني يكادُ يَغتالني الوغدُ مما أقدّمُ له!، استقبلتُ ما قدمتْ لي.

- أنا: أشكرك، يا ليتني أستطيعُ ردَّ الجميل.
- المرأة: لا عليكَ يا ولدي، إلى أينَ أنت مُتجه
- أنا: في الحقيقة، أنا ذاهبٌ بلا وجهة!

عند سَماعها ذلك انهارت عليَّ بالأسئلة، وأخبرتها أن عملي فيهِ ما يسْلبُ منّي أكثرَ مما أنالُ منهُ، وأن صديقي الوحيد توفى في حادثةٍ، وأنَّ أملي وشريكةَ قلبي هجرتني، ولم يتبقى لي أحدٌ هنا ولا في أيّ مكان. أشفقت المرأةُ عليَّ ودعتني للعمل عندها، فهي الأخيرة لم يتبقى قُربها أحد سوى ابنتها العشرينية!

ذاك ما كانْ. نزلتُ معها من الحافلة، حملتُ معها أمتعتها وسرنا كيلومترين، وها نحن أمام منزلٍ مكوَّنٍ من ثلاث طوابق، أشارت إلى محلٍّ تحت المنزل. وقالتْ

- المرأة: يا ولدي أسكن هنا بلا مقابل، والأكل والشرب مني إليك مجانًا، وابحثْ عن عملٍ ربما تتحسنُ أحوالك.

وأنا من اعتقدتُ أنها ستعرض علي الزواج بابنتها التي حكتْ عنها في الحافلة، كما يحدثُ في القصـــص والأفلام. وقد رأيتُ ابنتها "أحلام" بالفعل في اليوم التالي وعرفتها، وكانت فائقة الجمال والخُلقَ والطّيبةَ لكن كان لها خطيب تعرَّفتُ عليه هو الآخر، يا للحظ المتقلّبْ. لكن الحقُّ يقال خدمةُ المرأة - وكانت تدعى خديجة - أفادتني كثيرًا وبالفعل وجدتُ عملاً، وبعد ثلاثِ أشــهرٍ جمعتُ بعض المالْ وبدأتُ مشــروعًا صغيرًا في تجارةِ الملابس بفضلِ دعمِ صاحب محل هناك، حيث كنتُ اقترضُ منه إلى حين أن أبيع تلك الملابس. وحصــلت على مدخولٍ لا بأس به فاســتأجرتُ بيتًا في نفس الحيّ وبقى الحال بيني وبين المرأة كالعائلة إلى أن تزوجتْ ابنتها وانتقلت إلى مدينةٍ أخرى معها.

وأنا بقيتُ هنا ولم أجد العشـرينية التي حلمت بها بعد! لكن سـمعت أن صـاحب المحل الذي يُقرضـني له بنات، كيف أحكي له قصـتي ليشـفق علي، ربما هذه المرة أحصــل على حســناءٍ منه. فلم تتبقى إلا الشــفقة ليعيش البؤساء مثلي!

.....

شتمنـــــاه واحتجنـــــاه

عند أزِقَّة حَيّ صـــغير كانت ترســـو قدميّ الأبله كما لُقِبَ، وفي أغلبِ الأحيانِ يكون وجههُ خالي التعابير، ونظرتـهُ مُصـــوَّبـةٌ للأمام، قليلُ الانتباه والالتفات. كان يُداوِمُ التَّواجُدَ في زُقاقِه، ولم تُشـهَدْ له نيَّةٌ، كأنَّما يتأمل. قِلَّةٌ من يعرفه ولا يكاد يُطيل التجمُّعَ بالناس إلا مُصـــادفةً أو وساطةً.

وكـالعـادة فـإنَّ كـلَّ مرئيّ عليـه أقـاويـلْ، من وحي الخيـالِ والتـأويـلْ. وبالتالي كان غيرَ محبوبٍ ولا يُريحُ الناظرينَ، كأيّ شـــيءٍ مُلْغِزٍ، لكنه في المقابل كان يثير الفضـــوليين وينال إعجاب بعضـــهم دون أن يتلقى عبارةً منهم، إلا أنَّ حركاتهم كانت كالإيماءات. ولطبيعةِ البشـــر غير المتعاطفة كان لا يتلقى عبارة المؤيدين، ولكن يُهاجَمُ بعبارة الشـاتمين، ومع ذلك ظلَّ يتجاهلُ الدخول في متاهات الضَّلال. وتوالت الأيام وهو يُوصَـــفُ بالعار والجنون دون أن يرتكب أبســـط ما يرتكبه الناس من رذائلٍ يومية، فقط لأنَّه غريبُ التفاصيل عمَّا عهدوه.

ومن عجائبِ الناس ما لا ينتهي، فحين علموا أنَّه ذو علمٍ ومكانةٍ إثر حديثه واختباره غير المباشـــر بحجَّةِ طلب مســـاعدته. لم يعتذروا، وحاولوا اســـتغلالهُ بالعروض البســـيطة حتى يخدمهم وذويهم، إلا أنه

أعتذر بعدم قدرته. فما وجدوا حيلة لأنَّه من القلائل الذين بلغوا الكفاءةِ والقدرةِ.

وظلَّ الحال على استمراره، وبين الأيام لا يتذكَّرهُ أحدٌ إلا في ضيقه حتى ضاقَ خاطره منهم. فمن حينٍ لآخر يأتي وجهٌ يسعى خدماته دون مقابلٍ، بل لا يفاجئونه حتى بالأشياء الرمزية أو الاقتراحات. ويسري كلُّ حوارٍ بعد تبادل التحية كالآتي:

- فلان: إني جئتك في حاجةٍ، أسألك أن تُلبيها.
- الأبله: أفصح لي عنها.

يُفصح "فلان" عن حاجتهِ شارحاً إياها.

- الأبله: حسناً لا عليك، سأحدّد لك وقتاً، عد فيه تجدها.

يشكره "فلان"، ويتوادعا حتى يتلاقيا عند جاهزية الطلب، وإن كان الطالبُ بعيداً يقترح عليه أن يسير معه بضع خطواتٍ رد للجميل, لأنه قصده!. أمَّا أبناءُ الحي الذين يجاورونه في كل مرةٍ كانت تختلف معاملتهم، فإذا لهم حاجةٌ تملَّقوا واستظرفوا وإذا كانوا في غنىً عنه تجاهلوا وتجهَّمت وجوههم. لكن إذا جاءوهُ استحيا وساعدهم، وهو غير غافلٍ أنهم من الشاتمين.

بلغ المطاف بالحيّ الصغير لاعتيادهِ على وجود الأبله، ولكن دونما أن يشُقَّ سيلانُ حكمته طريقه بين الناس، ودون أن يجدوا منهُ مصبًّا يسقي آمالهم. وهم من وضعوا سدًّا للإنسانية، بأحكامٍ وأساليبٍ لا محصولَ منها إلا نفور الأنعام.

وكما جرت سُـنَّة الحياة. حلَّ نذيرُ التغيير حينما بدأ الأبله ينسـحبُ من المشهد اليومي المُعتاد، فلم يعُد يَظهر إلا قليلاً بين الأيام، وفي الأوقاتِ الليلية الأقل بشـراً، ونادراً ما يتخذُ له من ضـوءِ النهار صـاحباً في وَقفاته، فكان بالضـرورة على من يحتاجه أن يأتي تحت السـتارة السوداء. وهنا لأول مرةٍ سيُبدي امتناعه عن المساعدة، وخاصـةً تلك التي تستغرقُ منه جُهداً ووقتاً. فإذا كان المعروض عليه قابلاً للحلّ في وقوفهِ، نظرَ إليه وأنجزه، وإذا تطلَّبَ منه اقتطاف سـاعاتٍ من جهده احتجَّ بالأعذارِ وأرفقه الاعتذار. في تلك اللحظة سـيُدرك أهل الأزقَّةِ الصـغيرةِ فُقدانهم لخدمةٍ مجانيةٍ ومسـاعدةٍ غير متوفرة، أمَّا الأبله فما كان إلا عاقلاً أَلقته أمواجُ الأقدارِ للسُّـكْرِ. كما يُلقي البحرُ عن غير قصدٍ أصدافهُ للصَّخْرِ. وأنه سيختفي لا محالة إذا جاءت الموجة المعنية بحمله. فكانَ إن مرَّ عليه أحدٌ قال له: "أينَ اختفيت، كان يُسـألُ عنك". يردُّ بابتسامةٍ، وعلى عجلةٍ التحية والتبرير.

وفي كل مرةٍ كانوا يحتاجون إليه ولم يجدوه تذكروا الأيام الأوائل التي شتموهُ فيها وقلَّلوا من شأنهِ، وقالوا في حسرةٍ: "شتمناه واحتجناه"

.....

زيـــــارةُ تهنئة وتهيئة

زارَ عبد الحفيظ مُجمَّعاً ســكنيًّا حديث العهد، وكانت غايته تهنئة عمته بالمســكن الجديد هناك، لكنه انجذب للمكان الذي كانت تُحيط به الأراضـــي المُخضــرَّة، ولا يبعد إلا كيلومترات قليلة عن الجبال التي زيَّنة خلفيَّة المُجمَّع. وفي تطلعه لكل تلك التفاصــيل، شــعر أن الحياة انفرجت بعدما كانت ضـيّقة بين الأزقة. وقرر المكوث سـبعة أيام، كي يرتاحَ من الضـوضـاءِ والاكتظاظ. قضــى منها اليوم الأول مع عمته، وكذا سرت العادة أن يُخصَّصَ أول الأيام للمُضيف إلى أن يُعتاد عليه في زوايا بيتِ المُســتضــيف!. كأنه في إجراءٍ قانوني لكنه بالطابع العُرْفِيّ، ومن الإجراءات؛ التمثل أمام اهل البيت أطول مدَّة، والحديث في ما يخصُ العائلة واليوميات. مقتَ عبد الحفيظ منذ زمن بعيد هذه الطقوس، ومع انشـغال والده أصـرَّ الأخير أن يبعثه لزيارة عمته مكانه وتبليغ التهنئة. وقضى يومه الأول مطأطئ رأسه، سامعاً مُطيعاً ومُجيباً مُهذَّباً.

وما إن أشـرقت الشـمس حتى اندفع خارجاً، يخطو هنا وهناك، يختلط بين أهل المجمَّعْ ويتعرَّفُ على نمط عيشــهم، ويســتمتع بالتضــاريس البهيَّة. ظلَّ على الحال ثلاث أيام، رأى فيهم ما لم يره في مسقط رأسه،

وأندهش تارةً وابتهج تارةً أخرى. كان يبدو كلُّ شـــيءٍ مقبولٌ بالنســبة له، إلا رجلٌ واحدٌ، كانَ شيخاً تبدو عليه الستين سنة. أثار فيه أحاسيس الغرابـة، وأعجزه عن الفهم. ذاك الرجل يخرج في كل ظهيرة ويتجه نحو الجبل، حاملاً معه قنينةً من الطين.

في اليوم الخـامس، تغلَّبَ عليـه فضـــولـه. وعنـدمـا التقى جـار عمتـه، وصف له الرجل وسأله:

- عبد الحفيظ : من يكونُ ذاك الرجل؟
- الجار: يَدعُونه الرجل الفاضــل، أشــعر أنه عدميّ. لا بُدَّ أنه ملَّ الحياة، لا يكاد يتمتع بها... لم أشـــهد له شـــهوةً أو غريزة، لكن أشكُّ في زهده، أنه لا يكاد يُصدَقْ!!
- عبد الحفيظ: لكنه فاضل، وذاك بشهادة الناس أجمعين
- الجار: يا صـديقي... هنا كلُّ من ملَّ المتعة يسمى فاضـلاً. لأنه لن يمسَّ متعـة الآخرين قبل أن يصـــلوا إليها!. ذاك المحبوب المُعتكف في حِرمانه، والمتعبّدُ لأمانيه. إنه قدوةُ كل الجشـــعين القذرين الذين يَعجزون عن تذوُّقِ متعة الحرمان التي تُعطي لكل شيءٍ معانيه!
- عبد الحفيظ: معك حق، ما المادحين إلا عاجزين عن فعل الفعل الممدوح عليه. لو كانوا قادرين لقللوا من شأنه.
- الجار: تلك هي آراء الذين بدون جدوى... ســـأتركك الآن عليَّ الذهاب لأجمع بعض الحطب، إن المُجمَّع حديثٌ كما تعلم، وإنه لمن حينٍ لآخر تمتنع الشـاحنات المحمَّلة بالمواد الضـرورية عن

الحضور، وإني الآن في الحاجة إلى قنينةِ الغاز من أجل الطهي، وليس لي بديل إلا الحطب.

- عبد الحفيظ: هل أساعدك،
- الجار: لا تتعب نفسك هناك ابني، شكراً. الى اللقاء
- عبد الحفيظ: أعانك الله

وأكمل عبد الحفيظ تجوله في المكان، ومع توشُّـح السـماء بالبرتقالي والبنفسـجي عاد إلى بيت عمته، التي في كل عودةٍ له تَنسُـج معه حديثاً فيه من الذكريات والأسئلة ما ينسي المرء في يومه وما فيه.

وفي اليوم السادس تجرَّأ ولحق بالرجل صاحب القنينة الطينية، غير أنَّ هذا الأخير شعر به وقبل أن يخطو على الجبل التفتَ وناداه.

- الرجل: لماذا تتبعني؟
- عبد الحفيظ: أريد أن أكتشف الجبل وليس لي من رفيق
- الرجل: حسناً، يبدو أنك حديث التواجد هنا ؟
- عبد الحفيظ: نعم، ما أنا إلا زائر
- الرجل: هيا إذن، يمكنك مُرافقتي، لكن دون كلام
- عبد الحفيظ: لك ما تريد.

وصعدا إلى الجبل، وكانا كلما سارا بضعة أمتار لاحظ صديقنا مناظراً بديعةً؛ شـجراً تبصـره عيناه في أول نظرة، ومياه تجعل لها مكان بين الصـخر الجبليّ ولا يدري منبعها، وحيواناتٍ صـغيرة، وأماكن مُزهرة... ولما وصلا إلى القمة خاطبه الرجل

- الرجل: افعل ما شئت الآن. وأنا سأجلس وأتأمَّل هنا

- عبد الحفيظ: ما الفرق بين التفكير والتأمل؟
- الرجل: التفكير فيه من الدقة، إنه استحضار وربط المعطيات الخارجية بالقدراتِ الداخلية. أما التأمُّل فإنه الغوص في إمكانيات تلك المعطيات، إنه تخيل عقلاني لاحتمالات لم تحدث بعد!، إنه ربط القدرات الداخلية بالمعطيات الخارجية.
- عبد الحفيظ: إنك حكيم، هل أنت سعيدٌ بالحكمة ؟
- الرجل: على الإنسان ألا يكون سعيداً، فالاستقرار في الطمأنينة الداخلية يعني أن له مجموعة من الثوابت، أنه كيسٌ مكدَّسٌ من تعاليم الآخرين!. إذا كان صريحاً مع نفسه، سيجد أن الصفات التي ينعته بها الناس وترتبط به هي الوحيدة التي تشعره أنه كسبَ شيئاً، وأن عمره وجهده لم يضيعا سدى، السعادة تكون بعد الاعتراف بك!. إذا كنت مُتجاهلاً لن تشعر بها مع نفسك، لو كان بإمكانك أن تشعر بها مع نفسك ما سألتني عنها وما تقاسمتَ كل تقدُّمٍ مع الناس بتفاخرٍ أو حتى بخجلٍ. لو اعتكفت.
- عبد الحفيظ: أعتكف مثلك؟
- الرجل: لا، لو كانت غايتي الاعتكاف كنتُ ذهبت لأماكن ما وُجد فيها الناس. لكن أتعمد أن يراني الآخرين لأنهم هم الاعتراف!. الآن أسألك أن تتركني مع نفسي بعض الوقت.
- عبد الحفيظ: لك ذلك. أشكرك على كل شيء

وذهب عبد الحفيظ إلى أبعد من عشرةِ أمتار، وجلس على صخرةٍ أشبه بمقعد مُشوَّه، وكانت قِمة الجبل عريضة كِفاية لأن يَبعُد عنه شخص آخر نفس المِقدار. وبعدها قام يستمتع بالمكان ويكتشفُ الحجارة التي

كانت غريبةَ الشكل، والنباتات، وكذا الحشرات. وما إن انتهى الرجل من تأمله فتحَ قنينة الطين وشرب منها وأخرج قطعة خبزٍ من بين جيبه، وكان لباسه فضفاضاً لا يظهر منه شيء. وبعدها نادى عبد الحفيظ وقال له

- الرجل: أتودُّ أن تشرب ماءً أو أن تُشاركني الخبز
- عبد الحفيظ: لا شكراً، هل أنت سعيدٌ بهذا الأكل وأنتَ في مقدورك أكل الألذَّ والأطيبْ؟
- الرجل: لا يسعى الناس إلا للسعادة، وهي تجنُّبُ الألم بالمتعة واللذة. لا اختلف عنهم في ذلك. لكن الألم النابع عن الحاجة يكون أهونَ من الألم النابع عن الرغبة. إذا تألمتَ للجوع تداويتَ بقطعة خبزٍ، وإذا تألمتُ لرغبتك في أُكلةٍ ما تداويتَ بدفعِ جُهدك ومالك ونفسيتك المُنتظِرة. كلُّ ما أحاولُ فِعله هو السيرُ على استطاعةِ روحي! ولست شهيدَ الفضيلة كما يعتقدون.
- عبد الحفيظ: إنه خيَّارٌ يجعلك تتأقلمُ مع كثرة الألم. لكن أظنُّ أن هناك ما هو أفضل.
- الرجل: نعم، وكان بالفعل. في حياتي قمتُ بالكثير، لكن الآن كما ترى لقد ظهر الشيبُ علي، ويكفيني جُهداً. الآن هيا نعود للمُجمَّع عليَّ أخذ عُدَّتي والعودةُ إلى الحقل قصْدَ السقيّ، وتنظيفه من الأعشابِ الضارة
- عبد الحفيظ: هل أساعدك

- الرجل: أنا طاعنٌ في السـن لِأَطمح لا لأن أعمل، لا عليك إني قادر
- عبد الحفيظ: وبما أنك تعمل لما لا تشتري لك أكل جيداً
- الرجل: ماتت حاسـة التذوق والتمتع بالذوق عندي، ما الأكل بالنسبة لي إلا ضمانٌ للاستمرار.
- عبد الحفيظ: كما تَرى! هيا نعود
- الرجل: يكفيك أجوبةً لا تسـألني في الطريق، لا أحب الحديث كثيراً.

وبالفعل عادا للمُجمَّع وافترقا، ودخل عبد الحفيظ إلى منزلِ عمَّتِه. وجهزَ ملابسه، وجمع بعض الأشياء تِذكاراً للمكان. لأنَّ الغد يكون هو اليوم السابع الذي عليه الترحالُ فيه إلى مسقط رأسه.

في اليوم السابع، وبينما يحمل محفظته ويتجه إلى العربة التي ستُخرجه من التضـاريس الصـعبة إلى الطريق الرئيس، الذي تمرُّ منها الحافلة الذاهبة للمدينة. رأى الرجل وهو يفرّقُ الأكل والملابس!، سـأل عمته التي كانت في جانبه. عمَّا يفعل الرجل، فأخبرته أنه عندما يبيع شـيئاً من محصـولِ أرضـه يُصـدّقُ أغلبَهُ على الناس. وقال عبد الحفيظ في داخله "مات التذوقُ عندك وبعثه في الآخرين، تتمتع بمنح المتعة للآخرين، إنك لفاضـلٌ بحق... ما أصـعب ما تفعله". ونظر إلى عمته واسـتودعها وصـعد للعربة ورويداً رويداً تختفي بين التضـاريس المرتفعة.

حبيبة عجائبية ورسائل شعرية

"تمرَّد قدْرَ ما شـــئتَ إنك مرتدٌّ للحب"، لم أؤمن بهذه العبارة، إنما خَلُصْتُ إليها، وكان ذلك بعد أيامٍ من الخصـام الذي شق الطريق بيني وبين محبوبتي ســـماوية العينين. وبحق، لون عينيها العجائبي يجعل تشاؤمي يختنقُ في غلافهما الجوي!.

ولم يكن ذا خِصامنا الأول، فأنا غائصٌ معها منذ زمن لا يقل عن سبعةِ أشــهرٍ في علاقة بين الصــداقة والإعجاب، ويشــكُّ كِلانا في أن تكون حبًّا. من جهتي لم أكن قادراً على منع نفســي من التغزُّلِ العذري فيها، ومن جهتها لم تكن تستطيع إخفاء اعتيادها عليّ، وكم أؤنسـها. غير أن الائتلاف بيننا جعلنا لا نتنازل عن حقّنا في بعضـــنا، قد يراه البعض تَملُّكْ، وقد يراه البعض الآخر واجِبْ. ولكن تمـة أثرٌ إيجـابي علينـا، كانت تُزيح عني الهمَّ، وســـوءَ تَفهُمي من الآخرين. وعلى حدّ قولها - أنا الآخر - كنتُ الأقرب إليها. حينها توالت انشــغالاتي، ومن طبعي أني أتوهُ في الأشـياء وأتناسـى الوقت، وغالباً ما تُسـتنفذ طاقتي وأمتنعُ عن الحوارات. وكانت تَعدُّهُ قِلَّة اهتمام أو أن علاقاتي مزاجية، وأن مودّتي لا تحضـــر إلا أوقاتاً معينة، ولا أُخالفها الظن. غير أني بحق معجبٌ بها ولن أبتعد عنها مُخيراً. لكني كلما كررتها انزعجتْ ومتنعتْ

عن الحديث، وفي المرة التي أطالت صدَّها، اشتقت لودِها، وأردت استفزاز مشاعرها، فما كان مني إلا أن استخدمت حِرفتي الوحيدة وهي الشعر، وبعث لها رسالةً وكتبت فيها:

عمَّا أنتِ تَفْتعلي مُشكلاً، وما السببُ ؟
ما أفصحتِ لي عن هوى لو أنأى، لِما الغضبُ ؟
كم دنوتُ مُبتهجاً والكلامُ يَضْطربُ
والفؤادُ معتقدٌ حبا منكِ يُنْتخبُ
تُعْرضينَ عن طلبي عارٌ، أنكِ الطلبُ !

لكنها رغما تسلُّمها للأبيات رأتْ ولم تُجبْ!. واستمر الخصام إلى أن تم أسبوعه.

وفي الأسبوع الموالي، كنتُ عائداً بعد قضاءِ بعد الأغراض الإدارية. تلك الأغراض التي تُغيظني، فلا طريقة لها إلا الأداء الإلكتروني الذي يقِلُّ تكويئُنا فيه ونخشاه والخطأ فيه!، أو الطريقة التقليدية التي تتنقلُ بالوثائق وهو أمرٌ مرهق. وفي انعطافي بين الشارع والحي لمحتها ماشية وصديقتها، تطلعَتْ إليَّ وسارت دون التفات. وأنا كنت أتتبعها بنظري - في وضعيةٍ غير إرادية - حيث تتواجد أمامي، ومساحة بصري ممتدَّةٌ على مسارها. انزعجتُ لأنها لم تُبادر بأيَّةِ حركةٍ تافهةٍ تُوحي إليَّ بأنها تستحضِرُ وجودي!. إنَّ من الحب ما يُظْهِرُ التفاهة!، إني على سبيل المثال في مواقف الاعترافِ بالحب أرفعُ صوتي أو أبرزُ ضِحكتي وتنفلتُ مني حركاتي، وليس بمقدوري تعبيرً خيرٌ من هذا!. لحظتها فكرتُ في اللحاق بها، لأراها أطول مدَّةٍ، وأرى فيما تفكرُ، وما ردُّها حِيَّال تتبعي لها. غير أني فضَّلتُ إتمام سيري المنزل.

ولم يمضي الكثير على تجاوزي لعتبة المنزلِ داخلاً، إلا ووجدتُ نفسي مُسرعاً أرتوي الماء وأضعُ الوثائق وأخرج مُتتبعاً الطريق التي سارت منها. كان ذلك بغير طائل، كانت الثواني كافيةً لأن تتوه عني كما كنتُ أتوه عنها. وبرغم اختفاءها لم يشفع لي الخاطر أن أعود للبيت، تمشيتُ أمتاراً والتفت عشـــرات المرات، وكان لي أمل أن أجدها، أو أن تُفكر هي في العودة للمكـان الـذي رأتني فيـه. لم يحـدث شـــيء من كـل فرضـــياتي. وتمايلت الشـــمس عن الأفق وبدأت صـــورتها تتلاشـــى وضــوؤها يخفت، إلى ان حل الغســق، ولم يهدأ لي البال إلا وخططت لها ما يلي - وبعثه - :

سرَّني أنّي أراكِ
إنك اللذَّةُ مِن بعد الصّعابِ
إنكِ الهدنةُ مِن بعد العراكِ
حقكِ المشروعُ في أيّ تَعابي
غيرَ أنَّ الذهن مدهوشٌ، يسلْ مِمَّا تُراكِ
قد قذفتِ القلبَ ظلمًا، ومضى بين الشِّعابِ
لا انتمى، لا عادَ لي، باللهِ قولي ما اعتَراكِ
في فَمي بُخّرَ قَوْلي ولُعابي
واستبانَ العيبُ بالهجرِ، وما قلتُ اشتَراكِ
قلتُ عيبي، وأنا من لم أُجاري بالدُّعابِ!
إنَّني مُسْتضعَفٌ، لا تَقفي دونَ حراكِ

*** ***

أَوْقعتْ بي رغبتي والقلبُ شاكِ

وعيوني في السَّرابِ،
لستِ من حبَّـكِ قلبي و وشاكِ
فاستعيدي كُحْلَ عينيكِ، سوادًا كالغرابِ
والفؤادَ الحقَّ، وارتدّي عن الغاوي، ونذلٍ بارْتِشاكِ
وادفني خذلانَ قلبي بالترابِ
ولتعودي، إنَّ وجداني انتشاكِ
فانتقيهِ الحبَّ، مِن بينِ الخرابِ
واستتوبي، إنَّ أحشائي حشاكِ
واستقي من بئرِ الصمتِ دَلْواً كالشرابِ،
خالدٌ، يروي طِوالَ العمرِ حُلْواً، وانزعي كلَّ غشاكِ

وكما سبق تسلَّمتْ ولم تُجبْ، شعرت بغضبٍ لم أستطع كظمه. كنت أتوقُ لردها، لعودتها. وكلما فكرتُ أني مُفارقها، كأنَّ الشوك يحطُّ على قلبي كاللسعة. ما اصطبرتُ فقلتُ لها في رسالة آخر بعد ساعتين عن الثانية!:

لا تُحرجيني لو فؤادي منكِ مالْ ما في الوجودِ سلطةٌ فوق الجمالُ
كم أذْنبَ الأنسانُ قبلي باحتمالْ وفي احتمالي، لن أرى أقصى الكمالْ
ما دمتُ غافلاً جميلاً باحتشامْ.

ما من ذريعةٍ إذا ضاعَ الوصالْ ما فادَ سيفُ قائدٍ دون النصالْ
لن يرتوي قلبي إذا غابَ اتصالْ إنَّ اعترافي رافضٌ كلَّ انفصالْ
فالقلبُ مالَ والميولُ التحامْ.

نعم، كما المرات السابقة لم تستجب، كأني أخاطب امرأة لا تقرأ ولا تفهم ولا ترى... كأنها عطَّلتْ - عن عمْدٍ - جميع ادراكاتها التي

تربطها بالتواصـل، الذي أشـبه بالطريق المتقاطع لعوالِمنا الداخليّة. لم تدع لي خياراً غير أن أضـــع النقط على الحروف، فكان هَمّي الأوْحَدْ أن أراها وأُوضّـحَ الأمور بيننا؛ إذا ما كنا نريد الاستمرار وذاك محبذٌ لدي، أو نضـع فَيْصـلاً يوزع المشـاعر التي اجتمعت في وعْدِنا، ويُقَسّمَ الطُّرق التي صارت مشتركةً في قُرْبنا وبُعْدنا!. وصمَّمت أن أخرج كل يومٍ وأتجول في الطرق التي تعبُرها. وأنتظر قرب الزقاقِ الذي تسكنه فيه قُرابة ساعة.

وتَأتى لي ما انتظرتُ وظهرتْ، غير أنها لم تتجاوز البقال الذي يقع أمام منزلها. ولم يكن في وسعي الحديث معها هناك، لأن الناس ستنقلُ عنا ما كان وما لم يكن، تلك حِرفةٌ يُتقنونها بكل فئاتهم، بســـبب المصـــالح. إنَّ لها مُعجبين لن يُفَوتوا هاته اللحظة إلا وجمعوا طمعهم وحقدهم وحســـدهم في أعمق العبارات حقارةً. وكذا بعض المرضـــى الذين يَعُدُّونَ جمع الكلام عن الناس موسـمُ حصـادٍ ومسـاومةٌ لفرض مكانتهم في السوق، ولا أقول ذلك من باب المجاز!. لكن كان حُضورها سَـخيًّا كما العادة وكانت في إطلالةٍ ألهمتني، وكتبت لها للمرة الرابعة:

مُـثـقـلٌ قـلـبـي هـمـومَ الـواقـعِ ورأى لـونَ ثـوبٍ فـاقـعِ
فارتدَّ الثقلُ للعينِ ثقيلاَ ورســـى في منظرٍ كانَ جميلاَ
شدَّني للبوحِ حتى قلتُ قيلاَ!

قلتُ قيلَ الحسـنُ حسـنُ الجامعِ فارحميني بالفؤادِ السـامعِ
من قوامٍ وجمالٍ دافعي في نشـــاطٍ كالشـــبابِ اليافعِ
فاضـحاً بالعينِ ما يسترُ قلبي فاتحاً بالحبِّ ما ضـاقَ بدربي
أنتِ طيبُ الطيبِ في حُضنكِ قُربي

فأزيحي شرَّ حزني القابعِ وخذي عطفَ الحنانِ النابعِ

ولم أصـــدق أنها ترفض الرد للمرة الرابعة، والحق أني فقدتُ الأمل فيها. وانعزلتُ عنها حتى أوشـــكَ الأســـبوع الثالث ينتهي، ونحن في خصامٍ لم تُتَح له فرصةُ الانفراج عن حوارٍ أو عن مشاجرة!، فالشجار أيضا يحلُّ بعض المستعصيات وكنت لأقبل به حلاً.

وأرسلتْ لي - أخيراً – وجاءَ في رسالتها: " وجدتَ التي تتحدث معها طول الوقت؟. أظنكما انسجمتما، أتمنى أن تصطبر عليك وتكون حبيبةً جيدةً مثلي. تركتُكَ في راحتك كي تتحدثَ إليها وقتما شئتْ. ولا ترسل لي شِـعراً، لن تُغرني به، الكلمة التي تكرر على الأذان ربما تُمَلْ، لكن التي تُقال من مدَّةٍ طويلةٍ لأخرى تُذِلْ "

أحقا !!؟ مـا هذه الأعجوبـة!. وبعد حوارٍ طـال أربع ســـاعـات من التبريرات، أعادة فتح حدودها مع شروط. وكنت أحبها لدرجة أمضيتُ لها على حُريتي وتقييد مُعاملاتي وصـــداقاتي، والحقُّ يُقال خســـرتُ الأغلبية بسببها. ولازالت إلا اليوم على موقفها في البحث عن الأخرى التي أعشقها خفية!!

حـاجتي تُربّي هــوايتي

بعدما بلغ محمود العاشـــرة من عمره نُقِلَ من بيت أمه التي تعيش في البادية إلى بيت عمه في إحدى جوانب المدينة، قَصْدَ أن يدخل المدرسة هناك. لأنَّ أقرب مدرسةٍ في البادية لا تُدْرِجُ كل الفصول الدراسية.

وحين أُخِذَ من طرف عمه للتَّعرُّفِ على المدرســـة الجديدة، وتلك المدرســـة كانت من بقايا الاســـتعمار وكانت لأغنياء الأجناب وعند اســـتقلال البلد ظلت للعامة، وعند دخوله لاحظ أن أقرانهُ من الأطفال لديهم خزائن للكتب والألعاب. غير أنه مُنحدِرٌ من أسرةٍ فقيرةٍ ولم تكن لتوفر له أكثر من نصـــف الكتب واللوازم الدراســـية التي لا تتعدى الأقلام، وسَـرَتْ فيه الرغبة من أجل الحصـول على ألعابٍ يتسلّى بهم في الفســـحة. ففكَّر أن يصـــنعها وهو مُتعوّدٌ على ذلك في البادية حيث كان يجمع بعض الخردة وبعض المُجســـمات المرمية، ويلصـــقهم مع بعض من وحي خياله ويصنع أشكالاً وألعابًا.

وذاك ما فعل عندما عاد إلى بيت عمه، إذ طلب من الأخير الأشـــياء التي لم يَعُد يرغب فيها. وأخرج له عمه بعض الأكياس من العليَّة، وأزال منها الأشـــياء الحادة والضـــارة بالطفل وأعطاه إياه. فحملها محمود إلى غرفته وانفرد بها وأفرغها أمامه، وبدأ يُمارس هِوايته

المفضلة. واستطاع أن يُشكّلَ عدَّة أشكالٍ، حمل معه ثلاثة منهم لأنها كانت الأصغر والأجمل للخزانة المدرسية.

وفي اليوم الأول للدراسة ووسط الفصل، خرج الأطفال للفسحة. ذهب كل منهم لخزانته وبدأ يتسلى وحده أو مع رفاقه إلى أن تنتهي المُهلة. ومحمود فعل نفس الشيء إلا أن ألعابه كانت غريبة على الأطفال ومنهم من سخرَ واستهزأ منه، وحينها أحسَّ ببعض النقص مُقارنة بزملائه، غير أنه كان معتادًا على ألعابه وظلَّ يلعبها وحيدًا.

وفي إحدى الأيام سيطلب المدرّسُ منهم أن يُحَضِّروا نشاطًا في منزلهم، ويُحْضِروا معهم شيئًا يبدعوه تحت إشراف أوليائهم. وسيقصد محمود عمه ويخبره بما طلب الأستاذ، فقال له: لقد رأيت تلك الأشياء التي صنعت سوف تُعجب الأستاذ، فاختر واحدةً منهم واحرص على أن تكون نافعةً أو جميلةً أو مبتكرةً لا تشبه ما سيحضره الأطفال. نالت نصيحة عمه إعجابه ورضاه، وذهب إلى غرفته وبدأ يُصنّف تلك الاختراعات ويبحث عن نفعها وجمالها وتميزها. ولم يختر الألعاب التي كانت في الخزانة المدرسية لأنها كانت مُحاكاةً لألعاب الأطفال، وبدل ذلك فكر في شيءٍ نافعٍ. ووقع اختياره على اختراعين: أولهما غشاءٌ خارجي لدمية دب كان فارغًا من القطن ومرمي، فوضع فيه علبا من الكرتون كبيرة وصغيرة ورتبها وأكمل فراغ الدمية ببعض الملابس المهترئة، ووضع فُتحةً في فم الدب تقود إلى العلب، حتى تستعمل ككيس نُفايات؛ لأن الأطفال سيُحبون الدب ويتشجعون على إطعامه برمي النفايات في فمه بدل تركها على المقاعد. وثانيها: كان عبارة عن أداة لمسح السبورة، بما أن السبورة كبيرة ومسحها

بالممسحة الصغيرة يأخذ وقتًا وجُهدًا، فكر في أداةٍ جديد. مسك مجسمًا طويلا، واختاره من حيثُ طوله أقرب لطول السبورة ولفَّهُ بثوبٍ حتى لم يعد يظهر وألصق عليه مجموعة من المماسح بشكل مستقيم، وزيَّنها من جوانب، وبهذا يمكن للمرء أن يسحبه مرة أو مرتين على وجه السبورة حتى تعود فارغة.

وفي الغد قدَّم وشرح ما أنجزه للأستاذ وأعجبه عمل محمود كثيرا، لأنه كان متميزًا بأفكاره البسيطة والمبتكرة على الأطفال الآخرين الذين لم يقوموا إلا بإعادة تشكيل ما يرونه دون ابتكار. وذلك عائدٌ إلى ممارسته الدائمة لهذه الهواية وحاجته إلى تلبية رغباته التي لم تكن ظروفه تسمح بأن تأتي إليه.

ومن يومها والأستاذ يلقّبه بالمبتكر الصغير ويشجعه، وتغيرت نظرة الأطفال الساخرة إليه. وأصبحوا يحترمونه ويقدّرون أعماله ويحيطون به حتى يكشفونها.

.....

في الضجَّـــة حُجـــــة

بعد عودتي من العمل في الظهيرة، مررت بمحل البقالة. كي أجلب غدائي، وحينما كنتُ واقفاً أمامه أطلبُ بعض المواد الغذائية، وبالطبع لم تكن لديه اللحوم البيضـــاء والحمراء الطازجة، وأنا بدوري لم تكن لي إلا دراهم معدودة، ودَفْعُها لم يكن كافياً إلا لشراء شـيء لا يتجاوز قطعةً معلبةً وخبزةً ومشـــروباً لا تزيدُ كميَّتُه عن كوبين صـــغيرين!. وبينما أن أســتلم طلبي، مرَّ شـــخصٌ يركض وتبعه حشـــدٌ من الناس والجميع يُهرول، والمتأخرين منهم اثنان يتســـاءلان؛ يقول واحد منهم "هل هذا الســـارق" يجيبه الآخر "أكيد هو... في الضـــجة حجة... ما كانوا ليثيروا كل هذه الجلبة على شـــخصٍ بريء"، وســـار الحشـــد وانعطفَ، ولم يبقَ منهم أحد. حملتُ أشيائي واتجهتُ للمنزل، واقتنعت إلى حدٍ ما بمنطق هذان المتحدثان.

وعدت بعد الغداء إلى العمل، وذاك روتيني اليومي. ومع الســـابعة مساءاً وأنا عائدٌ للبيت، التقيت بصديقٍ لي، وهو ابن الحي أيضاً. وبعد التحية والمقال عن الحالِ والأحوال، قال

- الصديق: هل سمعتَ ما حدث اليوم؟
- أنا: لا، أنا عائدٌ للتو من العمل.

- الصـــديق: مجموعةٌ من الناس ضـــربوا أحد الشـــباب وكادوا يقتلونه، حملته سيارة الإسعاف وهو غير قادر عن الحراك
- أنا: وما السبب؟
- الصـديق: المشـكلةُ أنه ليس المُذْنب!، قد اختلطت الأمور عليهم وضربوا الشخص الخطأ
- أنا: لم أفهم جيداً، أعد لي القصَّة من أولها
- الصـديق: كانوا يُطاردون شـخصـاً قال أحدهم أنه سـرقَ منزلهُ منذ أزيد من شـــهرٍ، ومن يومها وهو فارٌّ إلى أن ظهر اليوم. وبينما هم يُلاحِقونه ركض من إحدى الأزقة الضـــيقة. ولمحوا شخصـاً أخراً يرتدي نفس اللباس وهو يتشاجرُ مع تاجر، فظنوه هو. بدأت الصـــيحات تتجه نحوه وهو بغير وعي منه ركض هـاربـاً ولحقوا بـه، ولم يســـمحوا لـه بـالكلام وانهـالوا عليـه بالضـــرب. ولما انتهى كل شـــيءٍ، علِموا أن الســـارق بين يدي الشرطة. وقامت الدنيا بحثاً عن المعتدين.
- أنا: المســكين، من لاحقته الضـــجَّة كانت عليه حجة، انا الآخر اقتنعتُ أنه فعل شـــيئاً ليس جيداً. أتمنى له الشـــفاء العاجل وأن يُسامحنا على ظننا
- الصـــديق: يقولُ أهله ورفاقه أنه لك يكن ســـيئاً، لكن قُدّرَ له أن ينالَ عقابَ غيره
- أنـا: ليس عِقـابـاً، ذاك إجرام. مـا كـان من حقهم أن يضـــربوا بـأيـديهم أو على الأقل كـان عليهم أن يثبتوا عليـه الجرم حـد اليقين.
- الصـــديق: معك حق، هم نفســـهم عير مَهْديين. كيف يهدي المعتدين مُعتدي!

- أنا: غريبةٌ حقًّا. أدعُك الآن، علي الذهاب لاقتناءِ بعض الأشياء قبل التوجُّه للبيت.
- الصديق: أكيد، فرصةٌ طيبةٌ أننا التقيناك. استودعك

ودعته، واتجهت مجدد لمحلِ البقالة. لأخذ علبةِ سردين وخبزةً وعصيراً، عشاءً لي. وبينما أقتني تلك الأشياء أخبرني صاحب المحل أن الذين كانوا يركضون في الظهيرة هم نفسهم أصحاب الحدث، وهنا تأكدتْ. حملت أشيائي وذهبت إلى البيت

في الغد وأنا في طريقي للعمل. وجدتُ ثلاث شبابٍ يُحاصرون مُراهقاً. ويُخاطبونه " الكلُّ يشهدُ بسوء أفعالك، أنت الذي سرقت تلك الثياب... إنَّ في الضجة حجة " وكان يُقْسِمُ لهم أنه لم يفعل. وقبل أن يبدأوا في ضربه تدخلتُ، وقلت لهم

- أنا: اذا سمحتم له أن يَستعمل اللهجة، سيتبيَّنُ الحقُّ، وكانت عليكم جميعاً البهجة... لو فعل - وأنتم متأكدين من ذلك خذوه للشرطة وسيعرفون.
- قالوا: الشرطة تحتاج دليلاً، وليس لنا من دليل
- أنا: كيف تتهمونه دون دليل
- قالوا: نعرف أنه صاحب هذه الأعمال، وقد كان مُتواجد في نفس المكان

أخبرتهم بالحادثة الأولى التي وقعتَ مع الشاب. وتريثوا لكنهم أخذوه معهم إلى صاحبةِ الملابس لأنها شاهدتْ قميص الفتى السارق في آخر لحظة! هل يتشابهُ هو الآخر مع قميص السارق أو ينجو، الله يعلم. الإدانة عندنا تعتمدُ على التخمينِ والحظ والصدفة، والبراءة ألف قَسَمٍ ورجاءٍ، ودون جدوى.

إنســـانٌ مـهـدهُ المزبلــة

صبيحةَ يوم الجمعة. صحا الحيُّ على فعلةٍ شنعاء، كانت كفيلةً بانتقال الصحفيين إلى المكان، وقبلهم السلطات المحلية. وشاع الحديث حولها بين الناس؛ طفلٌ يُلْفَظُ من الرحم إلى حاوية القمامة، بالمشـــيمة والحبل الســـري، كأنه رمي على عجلٍ. وافترض الناس أنه ابن الخطيئة، وأن أمه لم يهُنْ عليها إلا وكان سيُحيطُها بالعار وينكّدَ عيشتها. أو أنه انتزع منها ورُمي لإخفاء خيوط الحادثةِ الشيطانية. ظهرت شتى الفرضيات، وتوحَّد الألم في رؤية طفلٍ لم تتلمَّسهُ أمه حتى لتنظفه!، ولم يُبصر إلا الأكياس والبقايا العفنة، لأنهم وضـــعوه تحت سُـترة الليل، وكأي طفل يُنجب من حقه شـــمُّ رائحةِ أمه أو حليبه اللذان يُلازمانه وقتاً ليس بالقصـــير، كان مُقدراً له في أول أيامهِ في الوجود أن يشـــمَّ نتانة الإنسانية!. ومن حُسن حظه كانَ من رآه أبلغ السلطات المحلية، وهي من نقلته وتكلفَّت به. ورجَّح الناس أن يأخذوه إلى دارٍ رعاية للأطفال أو خيريةٍ أو ما شابه، حيث يتلقى العناية الأموميَّة والحرص الأبويّ.

ولم يكن أحد من الحي يتوقع أن يشـهد منظراً يهتزُّ له الخاطر. غيرَ أن الأيام مضـــت بعد الحادثة ورجعت العجلة كما كانت. والحق يُقال: لا نقف عند مأساةِ الإنسان إلا دقائقاً مشاعريَّةً ونتجاوزه في جحيمه.

وبعد مرور أسبوع، أُعْلِنَ للعامة عن القصة كاملة خلف الطفل الذي احتضنته المخلفات!، بعد أن أُلْقيَّ القبض عن الأم التي تمَّ التعرف عليها بالاختبارات المخبرية والتحريات.

كانت فتاةً قاصراً، تكاد تبلغ السادسة عشرة من عمرها. تعيش مع والدتها المطلقة، ولها أخ أصغر منها. وكان في جِوارها يعيش خالها، الذي له ابن يبلغ العشرين سنة. أفتتن الشاب بالصغيرة، ببياض وجهها ورقَّة مَلامحها ونظرتها الأخاذة، صورتها لم تنجلي عنه، ووَقْعُ صوتها ظل يتردد في مسمعه، وزاد من تعلُّقه بها نتيجةَ مدح الشباب لها. والحق أنك يمكن أن تحبَّ من ينعتهُ الناس بالمحبوب وتفكر فيه أنت أيضاً، تلك نزعةُ الاحتكار وتملُّكِ كل شيءٍ جميلٍ وقيّمٍ يُمكنُ أن يصل له الغير. وأَكثرَ الشابُ الذهاب عندهم وتحجَّج مراراً ليجد مسلكاً إليها، وبدأ يطيلُ النظر والتبسُّم لها، وأَكثرَ مُرافقتها ومُراقبتها، والضحك معها إلى أن اعتادت عليه، وباحَ لها بالحب. وهي ترددت وتذرعت بالأُخوة بينها، لكن مع توالي الأيام قبِلَتْ به.

وعاشاَ قصةَ حب، إذ كانت تأتي إليه وهو يأتي إليها تحت لواء الرابط الأسري، وكانوا يغتنمون كلَّ فرصة للتفرد، ويخرجون عن طوعهم الأخلاقي. خاصةً وأن أمها تعمل لتُعيل الأسرة الصغيرة، وتبقى الفتاة وحدها مع الصغير الذي في غالب الأوقات يخرج ويتركها مع ابن الخال. وظل الحال شُهوراً وكانوا يأخذون الحذر ولا يَصلان إلى مراحلٍ مُتقدمة في الأهواء، كي لا يُمسَّ شرف الشرفاء والضمان العذري!. غير أنها وقعت في حب آخر، وقررَّت الانفصال عنه، لكن الشاب طغى وهدَّدها أكثر من مرة بالفضح، وأجبرها على الاستمرار.

وفي يومٍ رآها مع الذي تحبه، فاستشاطَ غضباً، وانتظرها إلى أن عادت وطلب منها أن تخرج لتلقاه وضربها. وأخبرها أنه سيأتي عندها غداً في غياب أمها، وكالعادة تفرَّد بها غير أن هذه المرة زاغت أهواءه بينما يعيشان الحميمية، وهي قاومت. غير أنه أمسكها بالقوة وبالشتائم واغتصبها. ومن هول صدمتها ذرفت الدمع ولم تستطع القيام فيما هو فعل فعلته وخرج. نهضت منهارةً ونظفت نفسها وظلت الحادث سرا، وظلَّ معها في علاقة سرية.

إلا أن ظهر انتفاخ البطن وكشفتها، وعلِمتْ أمها بكل ما جرى، أبرحتها ضرباً وأجبرتها ألا تخرج قبل أن تنجب، واجتمعت أمها بخالها وابنه، ولم يُوافقا على الزواج وستر الفضيحة. وأمها لم تستطع إدخال ابن خالها للسجن وهو الذي له الفضل الكبير عليها بعد طلاقها وحملها لسنين في بيته. تكتموا على الحادث وظلت الفتاة تُعامل بقسوة والشاب هَجَّره أبوه إلى مدينة أخرى. وعند اقتراب موعد الإنجاب، بدأت أمها تبحث عمَّن يُخلصها من الوليد، ولم تجد. وكانت هناك امرأة صديقة لها، قالت لها أنها يمكنها أن تعطيه لأناسٍ اغنياء كي يعيش في حالٍ أفضل - وهي في قصدها بيعه -، فوافقت أمها. وكان ذاك الحلُّ المرجح الذي جعل أمها تطمئن، لكن المرأة جاءت واعتذرت لهم، ولم تعد ترغب في الجنين. وظلوا ينتظروا ما ستأتي به الأيام.

جاء اليوم الذي بدأت الشابة تتوجَّع للإنجاب، وبينما الجنين يتمخَّض. اتصلت أمها بالقابلة، وذهبت تبحث عن سيارةٍ للأجرة وكان ذلك عسيراً في الثالثة ليلا. لكنها وجدت أحدهم وكانوا من الذين يعملون في الخفاء بلا رخصة، وقبل نقلها، طلبتْ منه الانتظار وسينال ما يرضيه، عادت أمها وكانت القابلة أخرجت الوليد للتو، فحملته بكل اجزاءه ولفت عليه قُماشاً، وخرجت عند السائق لكنه رفض أن ينقلها وذهب.

لم ترغب في العودة به، سارت كيلومترات، وسمِعتْ آذن الفجر وخافت أن يخرج المصليين وتنكشِف، فوضعته في حاوية للقمامة وعادت أدراجها. ولَما سألت الفتاة، أخبرتها أمها أنها أعطته لأشخاص أثرياء سيعتنون به لكن لن تريه أبداً. وبحثي عن شخصٍ تتزوجيه، أوْقِعي به أو أخبريه أنك مطلقة كي لا تُفضحي أيتها الفاسدة. وانسي الموضوع ولا تعيدي ذكره أمامي، فأنا لم أعد استطيع تحمُّلك. وبالطبع لم تستطع إضافة أيّ كلمة، إذا كانَ الكلُّ يراك مُذنباً فكلُّ ما يصدر منك لا حقَّ فيه عندهم. ولم تستطع النوم ليلتها من حُزنها الشديد.

وفي الغد سمعت الفتاة الخبر لكنها لم تستطع أن تعرف أنه ابنها، لأنها لم تراه حتى، ولم تضع يدها عليه!، وكذا لثقتها في أمها. إلى أن جاءت الشرطة وأخذتها من منزلها.

.....

الآفـــاق في الأنـفـــاق

بعدَ أن تمَّ الإعلان عن نتائج البكالوريا (الثانوية العامة)، كان ســـفيان فرِحاً بعد أن أزال عليه الثقل العرفيّ والاجتماعيّ قبل الدراســـيّ. إذ جرتْ الأعراف أن يُعْتَرف بالمرء بعد تسـلُّمه للشـهادة، هاته الأخيرة التي لم تَعُد تُقدَّر بأكثر من مســـتوى معنويّ. لكن ذلك لم يمنع أن يبلغ من الفرح نصـيب السـعادة، خاصـةً أنه الوحيد بين أخوته الثلاث الذي حصـلَ عليها، وتُعَدُّ كافيَّةً للرَّفع باسـم الأسـرة الصـغيرة بين العائلةِ والجيران، وابتهاج والديه اللذين يئســا من أبنائهم، الذين زادوهم خيبة على خيبة الدنيا التي أصرَّتْ أن تبق أوضـاعهم المادية والاجتماعية لا تشرف.

وبعد يومين ذهب لإحضـــارها، ولم يكن يحتاج أن يُدلي بمعلوماته الشخصية، فقد كان معروفاً في المؤسسة التي يدرس فيها. كيف لا ؟، وهو المشـــاغبُ والمتكاســـل كثيرُ المشـــاكل، والذي لم يتوقَّع أحد أنه سـيراه هذا اليوم!. وما أضـــاع الحارس العام الخمسـيني هذه الفرصـــة للاستهزاء من سفيان.

- الحارس العام: سـفيان! ... هل جئت نائباً عن أحدهم؟، لا تُتعب نفسك لن أسلّمها إلا له شخصيا.
- سفيان: لا، أريد شهادتي

- الحارس العام: أخذت الشـهادة! ... لا بُّد أنها أصـبحت سـهلةً جداً، في زمني أنا لم تكن لتحصل على ربع عتبة النجاح.
- سـفيان: الحمد الله، لقد قمتُ بالقليل من المجهود الذي لم أقم به سابقاً
- الحارس العام: واضـح أيها الغشـاش! ... ابتسـامتك العريضـة التي لم تُفارقك تُظْهِرُ كم أنتَ سعيدٌ بخداعنا!
- سفيان: لماذا أنتَ دائماً تظنُّ السوء فيَّ؟ حصلتُ عليها بجهدي
- الحارس العام: خذ سـنرى ما سـتفعله بعدها ... دعني أرى ... كدت تسقط، كنتَ محظوظاً
- سـفيان: وإن كان حظ، فلن يأتي عبثاً. فكم هم المُكرّرون وهم أقرب للنجاح!
- الحارس العام: خذ شـهادتك، الحمد الله سنرتاح في آخر أعوامنا في هذه المهنة التي ما عادت ترضي.
- سفيان: سلام عليك، تحمَّلتُك كثيراً حتى تكون الشهادةُ بين يدي. الأن، تبًّا لكَ أيها الأقرع
- الحارس العام: الأقرعُ هو أبوك

ونهض الحـارس العـام، ولحق بـه بحركتـه التي أبطـأهـا الزمن، لكن سفيان ركض مُسرعاً، وأفلتَ من الصفعات.

وصـل إلى البيت وكأي فرحةٍ بدأً يَخْفتُ بريقُها، انفتح ذهنه عن التفكير في الخطوة القادمة.

واعتادت الجهات الحكومية والخاصـــة في الفترة التي تلي النتائج أن يُعلنا عن مجموعةٍ من المباريات التوظيفيَّة. فأخذ الشـهادة ونُسَـخاً منها - قام بها - والوثائق المطلوبة التي لا تُقبل إلا مُصـــادقاً عليها. وتوجَّه

إلى السلطات المحلية وقام بالمصادقة عليها، ودفع لأكثر من جهة. غير أن نقطته المُتدنيّة لا تحظى بأي اهتمام، ولا تجعل منه خيَّاراً مطلوباً ولو للتعرُّف عليه أو لتجريبه. إنَّ النقطة هي الجسر الذي يربط بين الطالب ومعلّمه ومُستقبِله، هذا الجسر الذي انتحرتْ منه مواهبٌ وطاقاتٌ لا يُستهان بها وأخْيَرُ من تلك التي يتم استيرادها بالنقطة العالية. إن أغلب من تكون نقطهم مُتدنية يكونون متميزين في موادٍ دون غيرها، ودعني أقولها بلا خجل أو مُراعاة: إنَّ الدراسة اليوم ليست إلا محفوظات تُرمى فوق الورقة وتُنسى كأنها لم تكن، وأنَّ كل المتميزين لا يظهر منهم أحد عكس المُهمَّشين في المدارس، هؤلاء يكون منهم فنانين وعارفين وحتى علماء. إنهم يُظلمون في مكانٍ تُعلَّم فيه القيم كالعدالة والانصاف، في حين لا عدالةً ولا إنصاف في أن تكون الدروس محفوظات، لأن ذلك سيخلق تفاوتات، إنه من الصعب على الإنسانِ السوي ذهنياً أن يُعيد ما تلقاه كما هو!. ما علينا، حظ سفيان زاد غرقاً. أنه دون الشروط المطلوبة على المستوى البدني لكونه هزيلاً ولا يتعدى طولهُ متراً وخمسة وستين سنتيمتر.

انتهت جميع المباريات، ولم يتم المُناداة عليه. وفجأة تحوَّل من ناجحٍ إلى عاطل، من جدران المدرسة إلى أزقة الشارع!. ولم يرغب في إكمال دراسته في الجامعات، فالتعويلُ كله عليه، لأنَّه الوحيد بين أخوته الذي وصل لهذا الشوط في الحياة، ومرفوضٌ أن يتنازل بأي شكلٍ عن أحلام الأسرة التي بدت تُكِنُّ له احتراما. والشاب كان ينتظر انقضاء هذه السنة بفارغ الصبر كي يُحسِن وضعه المادي لأن الفقر يظهر واضحاً عليه، وكان ذلك يُغيظه أمام أقرانه الميسورين.

قرأ هنا وهناك، في الجرائد والمواقع، بحثاً عن فرصة توظيفية. لا يجد إلا ارتفاع الطلب على النساء، في أغلب المهن. ويتذكر قول أحد

أصـــدقاءه، " المرأةُ تضـــيفُ جماليةً للمكان. إن أغلبَ المهام يقوم بها الرجال، لذا وجب في قضـاءِ حوائجهم أن يرون نسـاءً حسـناوات، كي ينســون شــقاءهم، ويترددون على المكان دون أن يُرســلوا أبنائهم أو زوجاتهم!. وقد يصـيرونَ أسـخياء. إن الوضـعية جعلت المهام للرجال والوظـائف للنســـاء، فلا تُتعب نفســـك في الوظـائف خـاصـــة غير الحكوميـة". وبعد مدَّةٍ، كـان جـالســـاً يقرأُ إحدى الجرائد في المقهى القريبة من البيت، ولا يجلس فيها إلا نادراً. جلس قُربه ابن الحي وليد، وهو منقطعٌ عن الدراســـة من الســـلك الإعدادي، والتجأ للعمل في النظافة، وكان يرتدي زيَّ العمل.

- وليد: سفيان.. أراك جالساً وحدك
- سـفيان: اهلا وليد... أُضـيّعُ الوقت لعلّي أجد شـيئاً، لا أكاد أجد لي مكاناً، كأني كائنٌ برَّاني عن الإنسان!.
- وليد: لا عليك، ستجدهُ مع الوقت. لديَّ لك اقتراح
- سفيان: ما هو؟
- وليد: هناك شركةٌ للصرفِ الصحيّ تُريد عُمّالاً
- سفيان: أبعد الدراسة وسنوات ضاعت، أعملُ في المجاري!. لن يَقْبلها مني أحد من المقربين. بالإضافة أني لا أُجيدها ولا أحبها
- وليد: دراســـة... دراســـة! ماذا فعلتَ بها؟ ها أنت عاطل. إنَّ الآفاق في الأنفاق، عليكَ أن تسـمعني فيما يُفيد. بالنسـبة للعائلة لا أحد سـيعلم، قُل لهم تعمل مع شـركة ودون تفاصـيل. وغَيّرْ ثيابك قبل المَجيء في مقرّ العمل. وستُجيدها مع الوقت وتتقبلها لأنها هي الوحيدة المتاحة أمامك.
- سفيان: هل تظنها ستُناسبني

- وليد: ليس لديكَ حل، وأنا أعرفُ الذي سـيُوظفك بلا جهد، إنه صديقي. هيا، سأخبرك بالجديدة لاحقاً سأذهب للعمل الآن
- سفيان: وفقك الله صديقي. شكراً لك

رحل وليد وترك سفيان في مكانه جالساً يُفكّر. واعتبرها الأخير تجربةً تستحقُ أن تعاش. وظلَّ ينتظرُ أنباءً من وليد.

بعد مُضـيّ أربعة أيام. طرق وليد على سـفيان، وأخبره على عجلٍ أنه سـيبدأ العمل حتى بدون مُقابلة، لأن صـديقه يثقُ فيه وفي توصـيته. وأخبره أن يلتحق بالمجموعة يوم غد، ومدَّ لهُ ورقةً فيها العنوان الذي سيذهب له صـباحاً، وحينَ وصـوله للمكان سيسـألُ عن "عبد الغفور" الذي سيتكلَّفُ به، واستأذنه من جديد للذهاب.

انكشف نهارُ اليوم المُرتقب، وسار سفيان إلى الوجهة المقصودة وكله أمل. وبعد أن انطلقت به الحافلة الخاصـة بالنقل المدني، ووصـل إلى مقرّ الشـركة، وجد رجلاً يقف أمام البوابة قُرب الحارس. ويبدو على هندامه أنَّهُ شـخصٌ له مكانة في الشـركة. - وكان هو عبد الغفور، لكن لم يعلم سـفيان إلى حد السـاعة -، حدَّق به واتجه إليه كي يسـأل كما أوصاه وليد.

- سفيان: صباح الخير
- عبد الغفور: صباح الخير، فيما يُمكن مساعدتك ؟
- سفيان: أسأل عن السيد عبد الغفور
- عبد الغفور: أنا هو، هل تُدعى سفيان
- سفيان: نعم
- عبد الغفور: تعال معي... لقد أخبرني وليد بالكثير عنك...

ودون سـابق تنبيه، نادى عبد الغفور على أحد العمَّال وقال له "خذ هذا الشـاب أنه جديدٌ معنا، وأنتَ تعرف ما عليكَ أن تقوم به". ووضـع يدهُ على كتفه سـفيان وقال له "اذهب معه، وسـيُعِيدك إليّ". نفَّذَ سـفيان ما طُلب إليه دون أن يلفظ كلمة، لأنه لا يفهم شـيئاً في العمل، وجهلُ الشـيءِ لا يترك لك اختيار إلا الصـمت كي تتجنَّبَ المواقف المُحرجة، خاصـةً وأنَّ البعض لا يفوُّتها إلا بالاسـتهزاء. أخذهُ الرجل إلى غرفةٍ مليئةٍ بالخزائن وأزياء العمل المُعلقة، سـحب الرجل زيًّا وحقيبةً من المُعدَّات، وقال لـه "خذ وارتدي زيَّك وخذ المُعدَّات. وعُدْ إلى عبد الغفور" وتركه. اكتسـى سـفيان بالزيّ وحمل الحقيبة، وعاد إلى عبد الغفور

- عبد الغفور: ها قد عُدت، تليقُ عليك البدلة. الأن عليك أن تعمل بجِدْ، لأن عملنا ليس سهلاً
- سفيان: أشكرك، سأُقَدّمُ كلَّ ما عندي
- عبد الغفور: خذ هذه، إنها البطاقة الخاصـة بك، أنتَ الأن تعمل مع المجموعة باء. سيأخُذك إليها هذا الرجل الذي كان معك قبل قليل.
- سفيان: حسناً، ليكن ذلك

ومُجدَّداً نادى على الرجل، وأخبره أن ينقُلَ سـفيان إلى مجموعته، المكونة من سبعةِ أشخاصٍ وهو الثامن. وخرج معهم في أول أيامه في العمل، ولم يُطلَبْ منه إلا المسـاعدة مثل المسـاعدة في حمل المُعدَّات والآلات وكذا مَدّ الأنابيب والخراطيمِ التي تُوضَعُ في البالوعة. واستمر الحال خمسـة عشـراً يوماً، وكان مُتأقلِما جيداً. وكلما سـأله وليد عند مُصادفته في الحي يُعرب عن امتنانه ورضاه.

إلى أن أتى اليوم المشـــؤوم، الذي ســـيتغيَّبُ فيه عاملٌ من المجموعة، وكان اختصـــاصُـــه أن يدخل البالوعة ويزيل الشـــوائب منها. وســـيبدأ التفكير فيما بينهم في من ســـيعوضـــه، تهرَّبَ الجميع، ولن يقع الاختيار إلا على الوافد الجديد الذي لا يدري خُطورة المهمة. والذي وصـــــفه حينها قائدُ المجموعة قائلاً له: "أنت صغيرٌ وقصير، إنَّك أشبه بالجُرد!. لن تكون المهمةُ صـــعبةً عليك". وثقَ ســـفيان في رِفاقه وجهزوهُ ودخل البالوعة، لكن البالوعة كانت أعمق، ومددوا الحبل كثيراً. وكان جزءٌ منهُ مُهترئاً، ولم ينتبهوا له. سيعملُ سفيان على إزالةِ المشكل والعوالق في البالوعة، ويزيل معها متاعبَ الناس. غير أن الحبل لن يكون مُنصفاً هو الآخر، وسيتمزَّقُ وسيسقط في البالوعة. وسيهرع رفاقه لإنقاذه. لكنهم سيخرجونه غريقاً في المجاري!.

تــــاجـــر الخــواطـــر

أقام في حيّنا تاجرٌ ماكرً، يدعى عيســـى. كلما ذهب إلى ســـوقُ الجملة، ركز على ثلاثِ مبادئ في الشيء الذي سيُتاجِرُ فيه؛ أن يكون ضرورياً كي يضـــمن بيعه، وأن يكون مُرتفع الســـعر في التقســـيط كي يأخذه بالجملة أرخصَ ويُدخِلَ رِبحاً أكثر، وأن يكون نادراً كي يحصُـــدَ منهُ أكبر كميةٍ ويُضْـعِفَ المنافســـة. لكن كان من الطبيعي أن يُثيرَ الأنظار بتلك الكميَّات، التي تُعَدُّ ضــخمةً بالنســبة لرجلٍ في حي شــعبي، بحيث يملأُ بها شـــاحنة كلَّ يومين أو ثلاث أيام، هذه المُدَّة التي تكون كافية بتفريغ تلك الحُمولة وبيعها.

وكان هناك تاجرٌ كبيرٌ في ذاك السوق الذي يشتري منه عيسى، ويُلْقب بتاجر التُجَّار، لأنه يبيع للتُّجار الصــغار، كلٌّ حســب اســتطاعته وكذا لديه محلاتٌ للتقسيط. وسمع عن عيسى فاستدعاه، ولبَّى الأخير دعواه، وقدِم إليه. ووجده في إحدى محلاته الكبرى، يجلس على مقعدٍ فاخر.

- عيسى: سمعتُ أنك تُريدني، أنا هو عيسى
- التاجر: تفضَّل، خذ لك مقعداً واجلس
- عيســى: ما الموضــوع ســيادتك، واســمح لي إني في عجلةٍ من أمري

- التاجر: سمعتُ أنك تأخذ كميَّةً ليست بالصغيرة، وأود التعامل معك، ولن يكون إلا ما تُحبُّ. لكن أجبني بصدق أين تأخذ كلَّ تلك السلع؟
- عيسى: ماذا أقول لك، ما أنا إلا ناقلٌ للسلع ولستُ صاحبها. ونتصدَّقُ منها أيضا.
- التاجر: لمن إذن؟ ولما تتصدقون بها؟
- عيسى: إنها لأشخاص لهم المال، أما أنا لا طاقة لي بتحمُّل كل تلك المصاريف... نتصدَّقُ بها للضعفاء مثلي، وهي مبادرة من التجَّار كي يخففوا من ذنوبهم.
- التاجر: معك حق، كي نتجنَّبَ الخسارة يمكن أن نخدع ونكذب وغيرها من الذنوب. سأعطيك بضع السلع تصدَّقْ بها من أجلي.
- عيسى: أكيد، نحن نسعى في الخير
- التاجر: لن أُؤخرك لأنك على عجلةٍ، أذهب لعملك وعندما تُريد أن ترحل تعالَ خذ ما أخبرتك به.
- عيسى: لك ذلك، مشكور... أستأذنك

وكان عيسى كاذباً في أقواله، هو صاحب السلعة ولا يتصدَّقُ منها. وأصابَ خاطر التاجر برغبته في التكفير عن خطاياه، وحَضَّرَ له سلعةً مجانية. واستطاع الماكرُ أن يضمن أرباحاً دون مصاريف، لكنه فكر جيداً في أنَّ أهل الحي والجوار مُستائين منهُ بسبب رفع الأسعار والاحتكار. وبدأ يفكر في استغلال صدقة التاجر في إرضاءهم، وبذلك لن يدفع من جيبه شيئا، وتوصَّل في الأخير إلى قرارهِ ببيعها بنصف الثمن.

واستمرَّ على نفس النهج، يأتي بالسلعة من التاجرِ ويبيعوها بالتقسيط بنصف سعرها. والناس تشتري منه وهو يردّد "النصف عليَّ والنصف عليكم، كي لا تقولوا أني أستغلكم. كنتُ أحتكر السلعة كي لا يبيعها لكم غيري بثمن غالي، لا شيء فوق رضاكم".

واستطاع بذلك أن يُرضي خاطرَ المستهلكين الذي يبحثون عن الشراء الأشياءِ بثمنٍ زهيد، وأصبح الأكثر شعبية في الحيّ والجوار. وزاد طمعاً. وخَدعَ تُجَّار آخرين بدعوى التصدُّق والمصلحة العامة، وبالتالي؛ سلعٌ كثيرةٌ ومتنوعة.

وبعد سنتينِ من خُططه الماكرة أصبحت علاقته بالمستهلكين متينة، ويأتونَ من شتى النواحي، بسبب الأثمنة الرخيصة التي تُرضي خاطر الفقراء وأصحاب الطبقة المتوسطة، وهم الأكبر قاعدةً من غيرهم في المكان. وأدخل ثروةً فتح بها عدة محلات.

أتعرفُ أين هو الآن؟ قبلَ أن أخر رغباته أن يصير سياسياً. هل أصبح أم لا؟ لا أعرف، كل ما أعرف أنه اختفى، ولم يترك إلا الخدم الذين رفعوا الأسعار أكثر من سعرها الكامل في عهده!

الفهرست

الإهـــــــــــداء.. 4
الـــمـــقـــدمـــة... 5
1 - حـــي الأزمـــة.. 6
2 - كســـرة خـبـز كســـرت الـحـيـاة............................. 18
3 - أرجـــوحـــة الـــقـــطـــران.. 35
4 - اشــــتــبــاك الـــعـــوالـــم.. 42
5 - انـــخـــرط فـــي الاخـــتـــلاط.. 51
6 - فــي الـحـيـلـة فضـــيـلـة.. 56
7 - عـــودة وجـــوديـــة.. 60
8 - مـــتشـــــرد... ولـــه مـــوعـــد.. 65
9 - بـــلا وجـــهـــة.. 68
10 - شـــتـــمـــنـــاه واحـــتـــجـــنـــاه....................................... 72
11 - زيـارة تـــهـــنـــئـــة وتـــهـــيـــئـــة...................................... 75
12 - حبيبة عجـائبية ورســـائـل شـــعـريـــة........................ 81
13 - حـــاجـــتـــي تـــربـــي هـــوايـــتـــي....................................... 87
14 - فـــي الضـــجـــة حـــجـــة... 90
15 - إنســـان مـــهـــده الـــمـــزبـــلـــة....................................... 93
16 - آفـــاق فـــي الأنـــفـــاق... 97
17 - تـــاجـــر بـــالـــخـــاطـــر... 104
الـــفـــهـــرســـت... 107

نبذة المؤلف:

- ✓ الاسم: مصطفى رحماوي
- ✓ الدولة: المغرب
- ✓ تاريخ الميلاد: 28\08\1998
- ✓ موجز في شعبة الفلسفة
- ✓ طالب في شعبة التاريخ والحضارة

الأعمال السابقة :

- كتاب خواطر "خواطر في العزلة" عن دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
- قصة للأطفال "غريب الأطوار والفضولية" ضمن الكتاب المجمع "فسحة الآمال" عن دار رقمنة الكتاب العربي ستوكهولم
- خاطرة "جف ريقي" ضـــمن الكتاب المجمع "على متن القلب" عن دار ملتقى كتابنا العرب
- خاطرة "خاطرة إلى صـوفي" ضـمن العدد الثاني من مجلة قصـص وحكايات للنشـر الإلكتروني
- ديوان "على يدها مفاتيح المصير" عن دار رقمنة الكتاب العربي ستوكهولم
- قصـة "سـجناء الادعاء" ضـمن الكتاب المجمع "من وحي القلم" عن دار بسـمة للنشـر الإلكتروني -المغرب-
- كتاب خواطر "مجرمة هي في الحب" عن دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
- كتاب خواطر "إنساني الهوية" نشر حر
- ديوان "سلبنا شروط الوجود" عن دار تُراث للنشر الإلكتروني.

زُقـــــاقْ وأرزاقْ

وبعد شرودٍ في الخذلانِ والذكريات البائسة توقَّدَ في داخلي الغضب، وقمتُ ماشيًا والعين شرارةُ لهب، والقدم سيفٌ بتَّارٌ يُقسِّمُ الشوارع على الوقتْ. ورغم أنّي لم ألتقي مُرادي إلا أني أردعُ الشفقة، إنَّ الشفقة كالإعلانِ عن موت النفس، في بعض الأحيان تُمزّقُ إحساس الشخص أشدَّ من الظُلم!. وبعد أن طفح الكيل وزاد الويل، بدأتُ أتجول في كل الأماكن من أسواقٍ وشوارعٍ ومرافقٍ. غير أن الجميع مشغول بأعمالِه ولا من أحدٍ يحتاج مساعدةً أو خادِماً!، بعضُ البخلاء يفعلون كل شيءٍ بأنفسهم أكثر من الفقراء المغلوبُ عن أمرهم. لم أنل إلا التعب في التواجد بين هؤلاء، يا للحضارة، بأيّ حجَّةٍ يدَّعون أنها الأرقى هل لأنها محت البسيطة من مُخلَّفاتها وجفَّفت الأفواه من ريقها، تكادُ الحشرة فيها لا تجد بذرةً واحدةً تضمن لها العيش ليومٍ واحد!. يا إلهي ما هذا، الحي المهمش أبلغُ من المدينة حياةً، رغم أن كلاهما سافل!. وشيئًا فشيئًا بدأتِ الشمس تسحب نورها وتُنْقِصُ حرارتها، إذ قاربَ حلول المساء. وما كان مني إلا أن عدتُ للشارعِ الذي يُرجعني إلى مسقط الغرفة!.

مصطفى رحماوي

تـــراث
دار تـراث للنشر الإلكتروني